Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضاء والقدر

عند السلف

تأليف

أبو محمد الحسن علي بن إسماعيل البربهاري

تقديم

فضيلة الشيخ
د. ناصر بن عبد الرحمن الجديع

فضيلة الشيخ
د. سعيد بن عبد العظيم

دار الإمام أحمد
للنشر والتوزيع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القضاء والقدر
عند السلف

تأليف
أبو عبد الرحمن على بن السيد الوصيفى
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

تقديم الدكتور
سعد عبد الرحمن ندا
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

جميع حقوق الطبع محفوظة

رقم الإيداع ٥٧٦٦ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولى

977 - 331 - 084 - 1

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم :

بقلم فضيلة الشيخ الدكتور / سعد عبد الرحمن ندا

[حفظه الله]

من سعد عبد الرحمن ندا إلى الأبن الفاضل الشيخ / عليّ بن السيد الوصيفى « حفظه الله ورعاه ووفقه » .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد :

فأحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وهو للحمد أهل ، وأصلى وأسلم تسليماً على عبد الله الكريم ورسوله الأمين ، وعلى آله وصحبه ، ومن تابعه وسار على نهجه إلى يوم الدين .

وقد اطلعت على مؤلفكم [**القضاء والقدر عند السلف**] فدعوت الله لكم أن يجزيكم خيراً ويزيدكم من فضله .

وقد ذكرنى مؤلفكم بزيارة جبريل عليه السلام لرسولنا محمد ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، ثم الساعة .

كما ذكرنى هذا المؤلف ما كان من شأن معبد الجهنى أول من قال فى القدر فانطلق يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميرى حاجين أو معتمرين فقلنا لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء فى القدر ، فوفق لنا عبد الله بن عمر بن الخطاب داخلاً المسجد فاكتنفته أنا وصاحبى أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله فظننتُ أن صاحبى سيكلُ الكلام إليّ فقلت أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناسٌ يقرءون القرآن ويتقفرون العلم وذكر من شأنهم وأنهم يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنفٌ « أى مستأنف ولم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يسبق به قدر ، ولا علم به من الله تعالى ، وإنما يعلمه بعد وقوعه » – وهذا ولا شك قول باطل –

فقال عبد الله : فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برئٌ منهم وأنهم بُرآءُ منى والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه « أى فى سبيل الله » ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر . الحديث . رواه مسلم فى الإيمان (٨) .

وقد قال القاضى عياض رحمه الله : إن القائل بهذا القول كافر بلا خلاف .

وحين ننظر إلى واقعنا اليوم نجد أن كثيراً من المسلمين فى حقيقة أمرهم يدينون بهذا القول وهم لا يفهمون ولا يعلمون مدى خطورته ، ذلك بأننا نرى أغلبيتهم لا يخرجون من بيوتهم كل صباح قبل أن يطمئن على حظه أو بخته الذى فى الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية بعنوان : « حظك اليوم : الحمل – الثور – الجوزاء – السرطان – الأسد – العذراء – الميزان – العقرب – القوس – الجدى – الدلو – الحوت » ، ويبحث عن البرج الذى ولد فيه ، ثم يرى حظه المكتوب تفصيلاً أمام كل برج ، ويربط حياته بهذه الأبراج ، فإن وجد فيها حظاً لا يعجبه تشاءم وعاش طول يومه فى نكد وغم ، وربما يستمر قابعاً فى بيته لا يخرج حتى يرى صحيفة اليوم التالى ، لعله يجد حظاً أوفر ، فينشط ويتحرك للخروج من بيته ، وهذا هو حقيقة إنكار القدر .

وقد عم هذا القول فى كل شئون الحياة ، خاصة فى الزواج ، إذا أراد أن يتزوج ، سأل الفتاة التى قابلها عن برجها التى ولدت فيه ، بدلاً من أن يصلى صلاة الاستخارة التى علمنا إياها رسول الله ﷺ فيخيره الله تعالى للخير ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وكذلك شأن الناس اليوم فى التجارة ، وفى السفر ، وفى الالتحاق بعمل أو الالتحاق بمدرسة أو كلية ، أو عمل مشروع جديد ، أو شراء بيت أو سيارة أو أى عمل فى الحياة .

يلجأ الشخص طلباً لمعرفة الغيب إلى ما يكتب للحظ فى الصحف والمجلات ، أو إلى الكهان ، أو العرافين ، أو قارئى الكف ، أو فنجان القهوة ، أو المندل ، أو المنوم المغنطيسى ، أو الدجالين والمشعوذين – أو مدعى معرفة الغيب – فرجائى أن تنبه عموم الدعاة والمصلحين ، بربط حياتهم وحياة الناس بكتاب الله الكريم – ولو قرأوا كلام الله فى كتابه العزيز لاستنارت بصائرهم ، واطمأنت قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : ٢٨] .

ويقول تعالى : ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٣] .

ويقول تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ [الحديد : ٢٢] .

ويقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر : ٢١] .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ [القمر : ٤٩] .

ويقول تعالى : ﴿ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] .

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ، ونور أبصارنا ، وشفاء صدورنا ، وذهاب همومنا وغمومنا ، إنك على ما تشاء قدير ، وهو مولانا ونعم النصير ، والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله الكريم محمد ، وعلى آله وصحبه تسليماً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٢٢/ من المحرم / ١٤٢١هـ

محبكم

د / سعد عبد الرحمن ندا

أستاذ العقيدة الإسلامية

بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية « سابقاً »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تقديم :

بقلم فضيلة الشيخ / سعيد عبد العظيم :

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد :

فإن التركيز على أصول الإيمان ومسائل التوحيد وقضايا العقيدة تركيز واجب ، فعن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال : « **إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى يومهم وليلتهم** » [رواه مسلم] .

فالتوحيد أولاً لو كانوا يعلمون ، وتقديم الأهم على المهم أمر واجب فى العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى ، ولا أهم من قضية التوحيد كما دل على ذلك الحديث المذكور وغيره ، والمسلم مطالب بأن يكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام فى مسائل التوحيد وغيرها ، وهذا لا يتم إلا بالرجوع للوحى الصادق – كتاباً وسنة – لا للكشوفات والمنامات والفتوحات ، كما تصنع الصوفية ، ولا لعلم الكلام والفلسفة كما تصنع المعتزلة ، ولا للمناهج الوثنية كما هو الحال عند الفرق الباطنية كالإسماعيلية ، ولذلك نجد أن الإمام البخارى – رحمة الله عليه – وضع منهجه – منهج أهل السنة والجماعة – فبدأ صحيح البخارى – بكتاب الوحى ثم العلم والإيمان ، وذلك لأن مردَّ العلم والإيمان للوحى الصادق وليس كل من تكلم عن صحة الإيمان وسلامة العقيدة وقوتها ، تحقق له ما يريد فقد يكون صوفياً يصرف العبادة لغير الله بزعم محبة الأولياء ، أو يقول بالحلول والاتحاد وسقوط التكاليف ، وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكون شيعياً يقول بعصمة الأئمة والرجعة وتكفير صحابة رسول الله ﷺ ، وقد يكون خارجياً يكفّر بالكبيرة ويقول بامتحان الأئمة ... فهؤلاء وأشباههم يصدق عليهم قول ابن مسعود – رضي الله عنه – كم من مريد للخير لم يبلغه ، ويُقال لهم : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ١١١] .

فلا بد من الرجوع لعقيدة سلف الأمة – علماً وعملاً – لكى تكون من الطائفة الناجية الظاهرة المنصورة .

وكل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف

وما لم يكن يومئذ ديناً فليس باليوم ديناً ، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، وقد أثنى الله تعالى على الصحابة فقال : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾[آل عمران : ١١٠] ، وصح عن النبى ﷺ أنه قال : « **خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** » ، وقال ابن مسعود – رضي الله عنه – عن أهل زمانه : كانوا أبر هذه الأمة قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً . وقد زعم البعض أن الكلام فى معانى التوحيد من شأنه أن يفرق المسلمين !! ولا ندرى كيف يفرقهم الحق وتوحدهم البدع والضلالات والجهالات ؟! ، وهل هم اليوم على قلب رجل واحد حتى تفرقهم معانى الإيمان ؟! ، إن الواجب علينا أن ننهج منهج الأنبياء والمرسلين، وأن نركز على ما ركزت عليه الشريعة ، وأن نستصحب السنن الشرعية والسُنن الكونية ، ونظرة سريعة على واقع الأفغان وغيرهم يدلك على أن كلمة التوحيد يجب أن تكون قبل توحيد الكلمة ، وأن وحدة الفكر ينبغى أن تسبق وحدة العمل ومع معرفتنا بأن الناس قد ورثوا الإسلام إلا أنهم يجهلون معانيه ، ولم تقم عليهم الحجة الرسالية قياماً يتأكد معه أن يحيىَّ من حَىَّ عن بينة وأن يهلك من هلك عن بينة ، فلا يُعترض على من اهتم بقضايا الإيمان وسعى فى توضيح معانى العقيدة للمسلمين وغيرهم ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فمن المسلمين من يعتقد عقيدة المرجئة ويؤخر العمل ويعيش بالنوايا الطيبة والقلوب البيضاء بزعمهم فلا صلاة ولا صيام، ومنهم من يتهم القدر ويقول :

قـــدرٌ أحمـــق الخطـــى سحقـــت هامتـــى خطـــاه !!

ومن الناس من لا يدرى من خلقه ولماذا خلقه وإلى أين المصير ، ويقول : جئت من أين ولكنى أتيت ، ولقد أبصرت قدامى طريقاً فمشيت ، وهذه طائفة اللا أدرية ، ومنهم من يذبح للسيد البدوى وينذر لأبى العباس المرسى ويستغيث بالحسين ويلتمس المدد من السيدة زينب ...

ومنهم من ينادى بالاشتراكية ويُطالب بالديمقراطية وينبهر بأجداده الفراعنة ويعتبر ما أقاموه من أهرامات ومسلات حضارة ، ومن هؤلاء من يرفض تشريع رب العالمين ، ويرى أن الأحكام الوضعية هى الطريق الأمثل لمواكبة العصر ومسايرة ركب التحضر والتقدم !!! ... مفاهيم ساقطة كثيرة ونماذج ضالة عديدة لابد من ردها لمعانى الإيمان الصحيحة ، وقد أخبر الصادق المصدوق – صلوات الله وسلامه عليه – أمته بأمارات وعلامات الساعة ، ومن جملتها بسط الجهل ورفع العلم ، واضطراب إلْبات نساء دوس حول ذى الخلصة ، صنم كانت تعبده دوس بتبالة فى الجاهلية ، وأن يُدرس الإسلام كما يُدرس وشى الثوب حتى ما يدرى ما صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا نسك وتبقى طوائف من الناس ، الشيخ الكبير والمرأة العجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة فنحن نقولها : لا إله إلا الله ، ولن تقوم الساعة وأحد فى الأرض يقول : الله ، الله ... وغير ذلك من المعانى التى تؤكد أهمية التركيز على دعوة التوحيد وقضايا الإيمان فى كل زمان ومكان ، وهذا هو المنهج الأقوم فى تربية الخلق ، كما يقول جندب – رضي الله عنه – تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً ، فإذا ترسخت قدم العبد وتمكنت معانى العقيدة من نفسه سهل عليه الانقياد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للأمر والنهى وأن يدور مع إسلامه حيث دار فيحل حلاله ويحرم حرامه ويقف عندما ينبغى أن يوقف عنده ، وعلى الدعاة إلى الله أن ينتهزوا كل فرصة لإبلاغ الحق للخلق وتعبيد الناس لله رب العالمين وأسوتهم فى ذلك الأنبياء والمرسلون ، فإن نبى الله يوسف – صلوات الله وسلامه عليه – لما أتاه صاحبا السجن يسألانه ، لم يبادر بتعبير الرؤى بل قال : ﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف : ٣٩ ، ٤٠] ، فكانت دعوة للإيمان قبل العمل والتكليف .

ومن طالع أحوال الصالحين لعلم قيمة الإيمان والتوقير لمصدر الأمر فى مشاهد التسليم بحيث كان الواحد منهم طوع إشارة ورهين ، فهذا نبى الله نوح عليه السلام يصنع السفينة على اليابسة وهو يعلم أن الله مجريها ومرسيها ، ونبى الله إبراهيم يترك هاجر وولده الوحيد إسماعيل بمكة ورجع إلى فلسطين نزولاً على أمر الله وهو يوقن أن الله لا يضيع أهله وأولياءه ، ثم همَّ بذبح ولده إسماعيل للرؤيا التى رآها – ورؤيا الأنبياء حق ووحى – فما ضاع ولا خاب ، وأم موسى وضعته فى التابوت وقذفت به فى البحر امتثالاً لحكمه سبحانه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [القصص: ٧] ألقت بفلذة كبدها فى اليمِّ انصياعاً لأمر خالقها وما ترددت .

الإيمان بالله هو الذى أوقف صاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فرعون والغلام المذكور فى قصة أصحاب الأخدود فى مواقف التضحية والفداء ، وقوة العقيدة هى التى جعلت الصحابة – رضى الله عنهم – حين حُرمت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخمر أن يقولوا انتهينا ربنا لما أنزل الله تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] ، وحين أمرهم بأن يذروا الربا ما ترددوا ، وحين أُمر النساء بالحجاب إذا بهن كالغرابيب السود فى لحظتها .

لقد صرنا نوقر كلام الطبيب العالمى والخبير الاقتصادى وننبهر بالدبلوماسى والسياسى حتى وإن صادموا دين ربهم بينما نتهكم بالسنن ونستخف بالشرائع المنزلة ، فما أحرانا بأن يقال لنا : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) ﴾ [نوح : ١٣] ، فما هذا بحال من تمكنت معرفة الله من نفسه ، وإذا كان كل نبى قد بعث بلسان قومه ليبين لهم وأهل مكة أدرى بشعابها ، فعلى العلماء والدعاة إلى الله أن يهتموا بقضايا الإيمان التى شاع فيها الانحراف وأن يركزوا على جوانب العقيدة فى تبصيرهم الخلائق كافة بدين الله ليحيىَّ من حيىَّ عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة وتقام الحجة لله على الخلائق وتنتفى الشبهات وتدرأ المعاذير .

وكتاب – القضاء والقدر – للأخ عليّ الوصيفى – حفظه الله – كُتب بأسلوب مُبسط سهل وفيه إجابة على كثير من الأسئلة التى تدور على ألسنة الناس وتتعلق بهذا الجانب الهام من دين الله – جل وعلا – والله نسأل أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء : ٨٨ ، ٨٩] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكتب

سعيد عبد العظيم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة الطبعة الثانية :

الحمد لله وكفى وصلاة وسلاماً على عباده الذين اصطفى وبعد :

فهذه مقدمة الطبعة الثانية لهذا الكتاب ، الذى أسأل الله العلى القدير أن ينفع به سائر المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، ذلك لأن القدر أساس التوحيد ، ودراسة التوحيد على منهج أهل السنة والسلف الصالح فرض عين على من أراد النجاة يوم الدين ، فقد علمت أخى المسلم أن أهل السنة يؤتون يوم القيامة بيض الوجوه ،كما أن أهل البدعة يؤتون يوم القيامة سود الوجوه ، وأى خزى كهذا . قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ، قال ابن كثير فى التفسير ٣٩١/١ : وقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ يعنى يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ، قاله ابن عباس رضى الله عنهما « انتهى » .

وقد هالنى ما وجدت من بعض دارسى المذاهب والفرق ، أنهم يظنون أن ما تضمنته هذه المذاهب والفرق الضالة أمثال القدرية والمعتزلة والجهمية وغيرها من مبادئ إنما هى من نتاج الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية ، وأن هذه الفرق خاصة المعتزلة دافعت عن الإسلام كثيراً ضد أعداء الإسلام ، وأن أصحاب هذه الفرق منهم العباد والزهاد ، الذين لا ينبغى أن نتهمهم بالضلال .

قلت : أما قولهم إن ما تضمنته أصول هذه الفرقة هو نتاج فكر إسلامى وثقافة إسلامية فهو قول باطل ، وأعظم دليل على بطلانه ما قاله أصحاب هذه المذاهب والفرق عند توبتهم منها ، ورجوعهم إلى مذهب السلف الصالح رضوان الله عليهم ، بما يدل على براءتهم من هذه الاعتقادات الزائفة ، وأنها ليست نتاج ثقافة إسلامية كما يزعمون ، إنما هى نتائج فلسفات فاسدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وخيالات ضالة وأذواق منتنة ، ولو كانت من الإسلام ما تبرؤوا منها .

وهؤلاء خاضوا بعقولهم القاصرة فى كل شيء ، وما وصلوا إلا إلى الندم وعض الأنامل ، ووضع الأذقان على الأكف ، وتمنى الموت على عقيدة العجائز ، وما ذلك إلا لأنهم تركوا مدرسة الدليل ، وهجروا السُنن ، وتبحروا فيما لا طائل من ورائه إلا الخسران .

نقل ابن القيم فى الصواعق المرسلة ٥٥٦/٢ عن الرازى فى كتاب أقسام اللذات ما أنشده فى بيان نهاية طريقة :

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا فى وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجال فماتوا والجبال جبال

لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ فى الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [طه : ٥] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] ، واقرأ فى النفى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] ، ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ومن جرب مثل تجربتى عرف مثل معرفتى (انتهى) .

قال ابن القيم : فليتأمل اللبيب ما فى كلام هذا الفاضل من العبر ، فإنه لم يأت فى المتأخرين من حصل من العلوم العقلية ما حصله ، ووقف على نهايات أقدام العقلاء ، وغايات مباحث الفضلاء ، وضرب بعضها ببعض ، ومخضها أشد المخض ، فما رآها تشفى علة داء الجهالة ، ولا تروى غلة ظمأ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشوق والطلب وأنها لم تحل عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث ، التى عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب ، فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله ولا صفاته ولا أفعاله « وصدق والله » . « انتهى » .

أما قولهم : إن هذه الفرق دافعت عن الإسلام ، وصدت عنه هجوم أعدائه وخصومه ، فأقول عن ذلك نعم حدث ذلك : ولكنهم قدموا لأعداء الإسلام لقمة زاخرة تتضمن جميع أنواع المطاعن فى الإسلام والمسلمين ، كشأن هؤلاء الكتاب العقلانيين الذين ينظرون فى النصوص بعين عوراء ، ثم يطعنون فى صحتها ، ولو كانت فى البخارى ومسلم ، أو يؤولونها على غير وجهها ، دون قرائن صحيحة بما يؤدى إلى تعطيلها أو تحريفها عن معناها الصحيح ، إلى معنى غير متبادر .

أما قولهم : إن أصحاب هذا الفرق عباد وزهاد . قلت : وكم من عابد زاهد لا يصلح لحمل العلم ، ولو كان يستمطر بدعائه .

قال مالك : أدركت هذا المسجد وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب النبى ﷺ ، وروى عن التابعين ولم نحمل العلم إلا من أهله . « إسعاف المبطأ برجال الموطأ ص ١ » .

وكم من زاهد عابد غرر به الشيطان ، وفتح به أبواب الضلال على الإسلام والمسلمين ، بل إن أول من وصفهم النبى ﷺ بإحداث البدع فى الأمة قوم يحقر الصحابة صلاتهم إلى صلاتهم ، وصيامهم إلى صيامهم ، وقد كان الخوارج والمعتزلة من أكثر الناس صلاة وصياماً وزهداً . وغلاة الصوفية يغررون الناس بمظهرهم ، وهم يدعون إلى الضلالة .

ذكر الإمام برهان الدين الباقعى فى كتاب تنبيه الغبى [ص / ٢٠] أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن عربى كان أصنع الناس فى التلبيس ، فإنه يذكر أحاديث صحاحا ، ويحرفها على أوجه غريبة ، ومناح عجيبة ، فإذا تدرج معه من أراد الله – والعياذ بالله – ضلاله وصل ولابد إلى مراده من الانحلال عن كل شرعة ، والمباعدة لكل ملة ، وخواص أهل هذه النحلة يتسترون بإظهار شعائر الإسلام ، وإقامة الصلاة والصيام ، وتمويه الإلحاد بزى التنسك والتقشف ، وتزويق الزندقة بتسميتها علم التصوف . فهو ممن أشار إليه النبى ﷺ بقوله : « **يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كمرُوق السهم من الرمية** » [متفق عليه] . انظر البخارى فى الأدب ٥٨١١ . « انتهى » .

وأمثال هؤلاء يجب الرد عليهم ، والتحذير منهم ، ولله در الإمام أحمد –رحمه الله – حيث يقول : والرد على أهل البدع أفضل من الجهاد فى سبيل الله . « انتهى » ، وهؤلاء الدعاة إلى البدعة لا ينبغى أن يذكروا بخيرهم ؛ ليوارى ما هم عليه من الضلال ، فإنهم ببقائهم على البدعة والدعوة إليها لا تقبل توبتهم ، فكيف يذكرون بخير .

قال الإمام أحمد : الداعية إلى البدعة لا توبة له ، فأما من ليس بداعية فتوبته مقبوله . « انتهى » .

ولذا ينبغى أن يحذر الناس منهم وأن يهجروا حتى يتوبوا وتصدق توبتهم .

قال شيخ الإسلام فى منهاج السُنة (٣٥٤/٦) : وعمر رضي الله عنه نفى صبيغ بن عسل التميمى ، لما اظهر أتباع المتشابه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وضربه وأمر المسلمين بهجرة سنة ، بعد أن أظهر التوبة ، فلما تاب أمر المسلمين بكلامه « انتهى » .

أعاذنا الله تعالى وإياكم من الجهالة ، ونسأله سبحانه أن يصلح سرائرنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وظاهرنا ، وأن ييسر لنا طريق السنة ، وأن يحببنا فى أهلها ، وأن يباعد بيننا وبين البدعة وأهلها ، والله المستعان ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً .

كتبه : أبو عبد الرحمن

علي بن السيد الوصيفي

دمياط - فارسكور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١) ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فإن الدعوة إلى إصلاح العقيدة وإزالة ما لحق بها من بدعة وشرك هو الباب الأول لإصلاح العلاقة مع الله تعالى ، ومن أجل ذلك كان أول واجب على كل عالم ومصلح وداع إلى الله تعالى هو العمل على بلوغ تلك الغاية العظمى التى تدور حولها كل الغايات وتتعلق به كل الوسائل ، وتهون من أجلها الدنيا وما فيها ، ولا يمكن لمجتمع أن يسلم من الغفلة والشطط ، وترقى فيه العزائم والهمم ويحظى بعز وسعادة وكرم فى الدنيا والآخرة ، إلا إذا علم كل فرد فيه أن أول ما يجب عليه معرفته أن يحسن اعتقاده فى الله تعالى ، وانقياده للرسول ﷺ ، وإخلاصه لدينه بالعمل الصالح ، والفهم السديد ، والدعوة إلى ذلك على هدى وبصيرة ، ولا يكون ذلك إلا باتباع الأدلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحيحة ، السالمة من الدخن ، الخالية من الخرافات والدجل .

ومن جهل ذلك ولم يعبأ به فهو مقطوع أجذم ، يسعى بلا غاية ولا هدف ويأتم بلا حجة ولا برهان .

ولم تكن الأمة أحوج إلى أن ترد إلى ما كان عليها سلفها الصالح من حاجتها هذه الأيام ؛ لما عليه كثير من الناس من البعد عن الحق والصواب ، خاصة فى مسائل القضاء والقدر ، لذا كان رجوع الأمة إلى سابق عهدها أحفظ للنفوس والقلوب ، وأبعد عن الفتنة ، من بقائها على ما هى عليه الآن .

والإيمان بالقضاء والقدر من أعظم الأركان التى تهدى المرء إلى معرفة نظام التوحيد ، الذى أقام الله تعالى الدين عليه ، بل وأنشأ الوجود كله بمقتضاه ، فمن لم يؤمن بالقدر فقد جهل أصل الخلق وابتداؤه ، وغفل عن علة الوجود وأبطل الأمر والنهى .

قال شيخ الإسلام ابن القيم فى شفاء العليل « ص ٢٠ » : إن أهم ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلاً عن الفاضل الجليل ما ورد فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل فهو من أسمى المقاصد ، والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه ، ومبدأ الدين المبين وختامه فهو أحد أركان الإيمان وقاعدة أساس الإحسان التى يرجع إليها ويدور فى جميع تصاريفه عليها ، فالعدل قوام الملك ، والحكمة مظهر الحمد ، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة وكمال النعمة ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين ﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] « انتهى » .

ولما كان الحق وسطاً بين طرفين مذمومين ، وقد تشعبت الأطراف ، وانتشرت المذاهب ، والأمر مترتب عليه جنة ونار وثواب وعقاب ، لم يكن لنا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من بد إلا أن نتمسك بمذهب السلف الصالح .

فهو المبين للعقائد الشرعية الصحيحة ، المفصل لكل ما أجمل ، الضابط لكل ما اشتبه ، المصدق بكل ما أحكم ، ففيه الخير كله ، فلم يكن لنا أن نحيد عنه أو أن نتخذ دونه بديلاً من مناهج الفرق الأخرى ، التى تؤدى إلى الشطط والضلال فى الدنيا ، والخزى والعذاب فى الآخرة ، وذلك لمخالفتها لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين .

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال : « من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم فى آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم . « انتهى » .

وما أحسن قول القائل :

وخير الأمور السالفات على الهدى وشر الأمور المحدثات البدائع

وقال الإمام مالك –رحمه الله تعالى – : لا يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به حال أولها « انتهى » .

والكلام فى القدر مرتبط بالإيمان فهو سادس أركانه ، وعليه فلا ينبغى أن يفهم النهى الوارد فى السنة عن الخوض فى القدر على أنه نهى عن معرفة القدر ومراتبه ومتعلقاته ، فإن ذلك طمس لحقائق القرآن ومعالمه ودلائل آياته ، التى تنظم العلاقة بين الله تعالى وخلقه ، وتوضح مهمة العبد ومكانته من قضية الخلق والأمر والكسب ، وتوضح جليل رحمة الله تعالى بالمؤمنين الشاكرين ، وخذلانه للكافرين المجرمين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنما ينصرف النهى الوارد فى السنة عن الخوض فى القدر والكلام فيه إلى ما يكون من جهة السخط والاعتراض ، أو من جهة نقض الحكمة والتعليل ، أو من جهة الاعتذار به على المعاصى ، فإن ذلك محرم منهى عنه . أما إذا وقفنا عليه كما وقف السلف الصالح فلن نعدم خيراً إن شاء الله تعالى .

وإن قوماً رأوا أن الدعوة إلى تثبيت عقيدة التوحيد فى نفوس المسلمين وإزالة ما لحق بها من فساد يثير الفتنة بينهم ، ويحول دون توحيد الكلمة ، وهذه الأخيرة من أعظم غايات الدين . وقالوا : إن من الخير أن يرجأ القول فى إصلاح العقيدة وتحقيق التوحيد إلى ما بعد عودة الخلافة .

وهذا كلام متناقض فضلاً عن كونه كلاماً ساقطاً : ذلك لأن أعظم غايات الدين معرفة الله تعالى بالتوحيد ، والانقياد له بالطاعة ، والخلوص من الشرك ، وتلك حقيقة دعوة الأنبياء ، وما جاء أحد من الرسل بتلك الدعوة إلا وانقسم الناس من حوله إلى فريقين ، فريق مؤمن برسالته ، وفريق كافر بها ، وتلك هى سنة الله تعالى فى خلقه ، ولو كان الأصل فى الدعوة هو اتحاد الكلمة لتنازل الرسل عن رسالتهم ليتحقق لهم ذلك – فقد كان ذلك هو مطلب أعداء الرسل من رسلهم – وهذا لم يحدث ، وعلى ذلك فالأصل فى الاجتماع ليس هو مجرد الاجتماع ، وإنما على أى شيء يكون ، وليس هناك أشرف من الاجتماع على التوحيد .

ولقد تعجبت ذات مرة من كلمة لأحد الدعاة يقول فيها : « أتمنى أن يتفق العرب مرة ولو على الباطل » ، قلت : ولماذا يكون ذلك ؟ أيكون لإبطال الحق ! ما هذا ؟ ..

إن من رأى إرجاء الأمر والنهى فى مسائل التوحيد حفظاً لوحدة الكلمة حتى تعود الخلافة إما أنه يدعو إلى خلافة أهليه وعشائرية ، أو أنه يجهل كرامة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخلافة ومكانتها ، أو أنه يجحد أركانها ومقتضياتها .

ذلك لأن الله تعالى وعد بالتمكين فقط لمن حقق الدين واستقام على هدى سيد المرسلين فقال عز من قائل : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾ [النور : ٥٥] ، وعلى ذلك فإرجاء الأمر والنهى فى مسائل التوحيد وتأخيره حتى تعود الخلافة إرجاء لحقيقة الإصلاح ، وهذا بدوره يؤدى إلى ضعف الإيمان فى القلوب ، وضعف الإيمان من أعظم سبل تسلط أعداء الله على المؤمنين ، وهذا لا يقيم خلافة ولا يجمع كلمة .

وقد اتفقت الكلمة على أن تعظيم الوسيلة من أعظم دلائل تعظيم الغاية ، وإذا كانت الخلافة غاية كما يزعم هؤلاء فأعظم وسائلها توحيد الرب جلا وعلا ، فكيف نعدل عن ذلك بما هو دونه وننتظر التمكين به ؟ فما بالك إذا كان توحيد الله تعالى هو منتهى الغايات ؟ .

ولقد تعجبت من احتجاج بعضهم بما كان من سلوك هارون عليه السلام لما ترك التصرف فى بنى إسرائيل حين عبدوا العجل ، خشية أن يتفرقوا من بعد موسى عليه السلام ، وقالوا : إن هارون قدم وحدة الأمة على إصلاح العقيدة ، وتحقيق التوحيد ، واحتجوا بجوابه على سؤال موسى له : ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) ﴾ [طه : ٩٢ – ٩٣] ، فقال له هارون : ﴿ يَا بْنَؤُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) ﴾ [طه : ٩٤] ، وليس فى هذه الآيات ما انتهى إليه فهم هؤلاء من نقض الأمر والنهى فى مسائل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التوحيد ، وذلك لأن الله تعالى بين في القرآن أن هارون عليه السلام لم يقصر في ذلك الأمر بل قام به خير قيام ، قال تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى (٩١) ﴾ [طه : ٩٠ ، ٩١] ، وقال في الأعراف : ﴿ إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين ﴾ [الأعراف : ١٥٠] .

وإنما انحصر عتاب موسى عليه السلام على هارون كما بين أهل التفسير في إرجائه هجران الذين عبدوا العجل ، وبقائه بينهم دون السير إليه بأهل الإيمان ، وقد كان هارون عليه السلام تأول قول موسى عليه السلام ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ [الأعراف : ١٤٢] ، أن ينحصر عمله بينهم في النصيحة دون الهجران والقتال ، حتى يرجع إليهم موسى فيجدهم كما تركهم فيقضي فيهم بما يشاء .

ولقد نسي هؤلاء أن الله تعالى حكم في الذين عبدوا العجل أن يقتل بعضهم بعضاً قرباناً إلى الله تعالى كي يقبل توبتهم ، فقتل بعضهم بعضاً ، حتى حصر في ذلك اليوم سبعون ألف قتيل ، وما ذاك إلا لأجل أنهم اتخذوا مع الله تعالى نداً في العبادة .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : فقال الله تعالى إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن ، فتاب أولئك الذي كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم ، فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول [١] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (٩٢/١) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكيف بعد ذلك تهون مسائل التوحيد ، وتنزل كرامتها عن وحدة الكلمة التى يزعمون .

وإن قوماً رأوا أن الكلام فى مسائل التوحيد وأصول الاعتقاد إحياء لمذاهب اندثرت وعقائد اضمحلت ، وهذا أمر لا ينفع المسلمين الآن لمواجهة أعدائهم ، قلت : سبحان الله ماذا يقصدون بقولهم اندثرت ؟ أيقصدون أسماءها أم مسمياتها ؟ .

أما أسماؤها :

فهناك كثير من الجامعات فى العالم الإسلامى تدرس عقائد تلك المذاهب وتقوم بنشرها بين طلبة العلم ودعاة المستقبل دون الإشارة إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم وأئمة السلف الصالح، من حسن اعتقاد وقوة دليل، وهذا بدوره يؤدى إلى نشر تلك المعتقدات الباطلة كمسلمات بين المسلمين .

أتريدون أن تنتشر تلك المعتقدات الباطلة دون أن تدفع بحجج أهل السُنة ؟ أم تريدون أن ينطمس اسم أهل السُنة بين طلبة العلم فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ؛ لتظهر أسماء الفرق والمذاهب المنحرفة ، وعند الرد عليهم يكون ذلك إثارة للفتنة ؟!! .

أما مسميات تلك الفرق :

أما مسميات تلك الفرق فإن وجودها اعتقاداً وسلوكاً وخلقاً لا يخفى على كل ذى عقل وبصيرة من أمر الدين ، فهناك من يقول: إن الله فى كل مكان ، وهناك من لا يثبت أسماء الله تعالى على حقيقتها ، وهناك من يجحد آثارها ، كما أن هناك من ينكر صفات الله تعالى ويؤولها على غير حقيقتها ، ويجحد آثارها ومقتضياتها وحكمها ، فصار بذلك يعبد موصوفاً لم يعرفه عن طريق محمد ﷺ ، وهناك من ينكر الشفاعة ، وهناك من يستغيث بالأموات ، وهناك من يتوسل بهم ، وهناك من ينكر القدر والاستطاعة ، وهناك من يسخط على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القدر ، وهناك من يحتج به على المعصية ، وهناك من ينكر الحكمة والتعليل فى الأمر والنهى ، وهناك من يبطل الأمر والنهى ، وهناك ممن يتسمون بالأدباء والمفكرين من يدين بعقيدة التعديل والتجويز التى أنشأها المعتزلة ، وجعلوها باباً لنقض الربوبية والألوهية ، اعتماداً على عقولهم الجوفاء الساقطة ، وهناك من يقدم المناهج الوضعية وأقوال الفلاسفة على قول الله تعالى ورسوله ﷺ ، وهناك من يتشاءم بالأيام والأزمان ، وهناك من يسب الدهر ، وهناك من يذهب إلى السحرة والدجالين ، وهناك من يتحاكم إلى غير كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ ، وهناك من يهاجر إلى بلاد الكفار ويواليهم على المسلمين باسم التحضر والمدنية.

والواقع يشهد بلا تحفظ كم عُرضت مسائل التسيير والتخيير فى القضاء والقدر على الناس بشبهات لم تجد من يدفعها ، فالضلال فى أصول العقائد موجود ومسميات تلك الفرق القديمة لم تدرس عند من ظن أن أسماءها قد درست .

وإن قوماً قالوا : إن بقاء الناس على فطرتهم خير لهم من دراسة التوحيد بالوضع التفصيلى .

قلت : أما البيان التفصيلى فقد جاء به الأنبياء والرسل عن الله تعالى ، والقرآن الكريم ملئ بما يثير الفكر فى ذلك سواء بالقصص والسؤال والمناظرة أو بعرض الثوابت وضرب الأمثال ؛ حتى تُصحح مفاهيم الأمم التى تبدلت وتغيرت لطول الأمد وبعد الرسالات ، فالبيان والتفصيل هو الصواب ، وإبطال ذلك وهجرانه إبطال لدعوة الرسل وتسفيه لجهودهم .

وقد سار على ضرب هؤلاء قوم قالوا : « إن الصحابة لم يعرفوا من أمور التوحيد إلا ما كان من دوافع الفطر » ، وهذا من جهل الافتراء على الله وأنبيائه ورسله ، وظن سيئ فيمن اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه محمد ﷺ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نعم قد كان الصحابة على خير الفطر ، ولكن ثبت أن النبى ﷺ علمهم كل شىء من أمور دينهم جملة وتفصيلاً .

روى مسلم فى كتاب الجنة ٢٨٦٥ عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : « **ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا** ... » الحديث .

حتى إنه ﷺ علمهم آداب دخول الخلاء ، روى مسلم وغيره فى كتاب الطهارة ٢٦٢ عن سلمان قال : قيل له قد علمكم نبيكم ﷺ كل شىء حتى الخراءة ، فقال : « **أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجى بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجى برجيع أو بعظم** » الحديث .

فكيف بعد ذلك لا يعلمهم أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ؟ وكيف يستقيم فى عقل هؤلاء ظنهم أن الصحابة رضوان الله عليهم يجهلون الإله الذى يسجدون له ويسبحونه ؟ كيف يظن هؤلاء فى الصحابة الجهل بأسس الاعتقاد الذى يبعثون عليه ويسألون عنه ؟ .

ثم وإلى أى شىء كان هؤلاء الصحابة يدعون الناس ؟ أكانوا يدعون الناس إلى ما هم به جاهلون ؟ معاذ الله !! ، واتفقوا فى الرد على خصومهم فى مسائل الأسماء والصفات والإيمان والقضاء والقدر عن جهل منهم دون سابق بيان وتفصيل واعتقاد ، وكيف يكون ذلك ؟ إن هذا من المحال ، ذلك أن الصحابة كانوا أعلم الناس بالله تعالى ، وأعظمهم فهماً ، وأقربهم ديناً ، وأتقاهم مسلكاً وطريقاً ، وما ضل من بعدهم إلا لمخالفتهم ما كانوا عليه من الدين الحق والصراط المستقيم .

إن معرفة التوحيد لا تتحقق إلا بمعرفة الشرك ، ومعرفة الحق لا تتحقق إلا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعرفة الباطل ؛ ولأجل ذلك كان لزاماً أن يظهر الحق مهيمناً على ما دونه ، والحق هو طريق السلف الصالح وما دونه طريق أهل الباطل .

وقد علم كل من له نظر فى الأصول أن تقديم أعظم المصلحتين إذا تعذر الجمع بينهما أوجب من تقديم أدناهما ، وترك أعظم الضررين عند الاضطرار أوجب من ترك أدناهما .

قال العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدى -رحمه الله - : إذا دار الأمر بين فعل إحدى المصلحتين وتفويت الأخرى بحيث لا يمكن الجمع بينهما روعى أكبر المصلحتين وأعلاهما ففعلت . وقال أيضاً : فإذا تزاحمت المفاسد بأن اضطر الإنسان إلى فعل إحداهما ، فالواجب ألا يرتكب المفسدة الكبرى بل يفعل الصغرى ارتكاباً لأهون الشرين لدفع أعلاهما « رسالة القواعد الفقهية ص ١٦ » .

وقد علم كل من له عقل ودين وفطرة سوية سالمة من الدخن والخلل أن أعظم المفاسد والأضرار التى تلحق المرء فى حياته وبعد مماته تكون بسبب فساد الاعتقاد وضعف التوحيد ، وأعظم الخير الذى ينجو به العبد من خزى الدنيا وعذاب الآخرة يتأتى من صلاح الاعتقاد وصدق التوحيد .

فيالله العجب ، كيف تهون كلمة التوحيد بجوار وحدة الكلمة ، وقد علم أنها الغاية العظمة فى الحياة ، فأى سعادة تحسب بجوارها ؟ ، وأى نصر يتأتى بدونها ؟ فيالها من كلمة غفل عنها الغافلون ، وإنى أهيب بكل داع إلى الله تعالى أن يهتم بمسائل التوحيد اعتقاداً وعلماً وعملاً ودعوة وصبراً ، وذلك أن الله تعالى ما خلق الله الدنيا إلا لكلمة التوحيد ، وقد فطر العباد عليها .

فمن زعم أن الناس فى حاجة إلى مجالس الوعظ والرقائق وليسوا بحاجة إلى مجالس التوحيد لأنها تفرق الناس ولا تتناسب مع عقولهم وحوائجهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النفسية والعقلية والاجتماعية فقد كذب على الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين .

بل إن مجالس التوحيد هى التى تعرف الناس بالله ومعرفة الله تعالى أعظم من معرفة الدنيا وما فيها ، فإن شرف العلم تابع لشرف المعلوم .

ومجالس التوحيد هى التى تشعر المرء بذل العبودية ، وترقق القلوب والنفوس وتبعد عن الشبهات والشهوات ؛ لما يتعلمه المتعلم من جلال الربوبية وعظم الألوهية ، ومجالس التوحيد تشعر المرء بالشوق إلى الله تعالى والإنابة إليه وحبه حباً يفوق حب النفس والأهل والولد ؛ وهذا يقيم المرء على طاعة الله تعالى وشكره وحسن الثناء عليه ، ويدفعه إلى الاستسلام لشرعه وحكمه ، ولأجل ذلك كتبت هذا الكتاب ، واسترشدت كما وضحت آنفاً بما اهتدى به السلف الصالح أئمة الهدى ومصابيح الدجى صحابة رسول الله ﷺ ، وبما مات عليه أحمد بن حنبل والشافعى ومالك وأبو حنيفة والثورى ، والأوزاعى والبخارى ومسلم وغيرهم – رضى الله عنهم أجمعين – وسميته : [**القضاء والقدر عند السلف**] ليتميز به الاتجاه ، وينتفع به أصحاب السُنن والفضائل .

ومن أراد الله له حسن الختام ، وأعتذر إلى الله تعالى به ممن أساء ، وأبرأ إليه به من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ، والله تعالى أسأل أن ينفعنى ووالدىَّ بهذا العمل ، وأن يغفر لي ولإخوانى وسائر المسلمين ، إنه جواد كريم .

وفى النهاية أسأل الله تعالى أن يجزى شيخنا وأستاذنا الفاضل الدكتور / سعد بن عبد الرحمن ندا خير الجزاء فى الدنيا والآخرة ، على ما قدم وأفاد ونصح أثناء مراجعته لهذا البحث ، وأن ينفع به سائر المسلمين وأن يجرى الله الخير على يديه ، وأن يمتعه بالصحة والعافية ، وأن يبارك له فى أهله

وأحفاده ، **وكذا أسأل الله تعالى أن يجزى شيخنا الجليل الدكتور سعيد عبد العظيم خيراً الجزاء فى الدنيا والآخرة** ، وأن ينفع به شباب الإسلام فى كل مكان ، وأن يفتح له من بركاته ورحماته ، وأن يسعد به أينما نزل وحل ، وأن يبارك له فى أولاده كما أشكر كل من عاون بنصيحة وكتاب « اللهم آمين » وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

كتبه

أبو عبد الرحمن

علي بن السيد الوصيفي

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد :

القدر : هو تقدير الله تعالى لأمور الخلائق .

قال العلامة الشيخ محمد خليل هراس- رحمه الله- فى شرح العقيدة الواسطية ص ٢١ : وأما القدر فهو فى الأصل مصدر ، تقول قدرت الشيء بفتح الدال وتخفيفها ، أقدره بكسرها وقدرا إذا أحطت بمقداره « انتهى » .

وهذا التقدير يتعلق بقدرة الله العلى الأعلى الوهاب الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وحكمه الذى لا يستدرك عليه من غيره ، ورميه الذى لا يخطئ ، ويتعلق أيضاً بعلمه الأزلى السابق لكل خلق ومخلوق ، فكل شيء يرجع إلى علمه تبارك وتعالى ، وكل شيء بمشيئة الله تعالى ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل ذلك مكتوب بكلياته وجزئياته ، كما أمر الله تعالى القلم أن يكتب فى اللوح المحفوظ ، فما أصاب العبد لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وكل شيء فى الوجود مخلوق بقدر، عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : « **كل شيء بقدر حتى العجز والكيس** » (١) .

وقد خلق الله تعالى ذلك بأمره وفعله ، قال تعالى : ﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ [الأعراف : ٥٤] ، فالخلق : هو القدرة على التخليق كما قال تعالى : ﴿ **أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)** ﴾ [يس : ٨١] .

قال شيخ الإسلام فى الفتاوى (٦/ ٢٣٠) : وإذا كان الخلق فعله ، والمخلوق مفعوله ، وقد خلق الخلق بمشيئته ؛ دل على أن الخلق فعل يحصل

---

(١) رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٥) وأحمد برقم (٥٨٥٩) ومالك فى الجامع (١٦٦٣) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمشيئته ، ويمتنع قيامه بغيره ؛ فدل على أن أفعاله قائمة بذاته ، مع كونها حاصلة بمشيئته وقدرته ، وقد حكى البخارى إجماع العلماء على الفرق بين الخلق والمخلوق ، وعلى هذا يدل صريح المعقول « انتهى » .

أما الأمر فينقسم قسمين :

الأول : الأمر الكونى الذى لا يجاوز ولا يمانع من بر ولا فاجر كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾[يس : ٨٢] .

الثانى : الأمر الدينى الشرعى المحبوب إلى الله تعالى الذى أرسل من أجله الأنبياء والرسل ، وأنزل من أجله الكتب ، وأوجب فيه طاعته وحذر فيه من مخالفته ، وهو الذى بسببه وقعت الخصومة بين الرسل وقومهم ، وهو الذى أقدر الله تعالى فيه الخلائق على الاختيار ؛ فآمن من آمن وكفر من كفر .

قال ابن القيم – رحمه الله تعالى – فى شفاء العليل « ص ٢٨ » : قال الإمام أحمد: « القدر قدرة الله » ، واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً ، وقال هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره فى معرفة أصول الدين ، وهو كما قال أبو الوفاء ، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها ، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها ، وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم .

عن ابن عباس – رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، قال الذين يقولون : « إن الله على كل شىء قدير » وهذا من فقه ابن عباس ، وعلمه بالتأويل ، ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات ، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها ، ولو كانوا يقرون .

فمنكر القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها ، ومنكرو أفعال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به ، ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو فى شأن يفعل ما يشاء لا يقر بأن الله على كل شيء قدير ، ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وأنه سبحانه مقلب القلوب حقيقة ، وأنه إن شاء يقيم القلب أقامة ، وإن شاء أن يزيغه أزاغة لا يقر بأن الله على كل شيء قدير ، ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض ، وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول : « **من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له** » .. إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله ، التى من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير ، فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن ، وقد كان ابن عباس شديداً على القدرية ، وكذلك الصحابة . « انتهى » .

وقد أراد الله تعالى من وراء كل فعل وأمر حكمة ورحمة ، ففى خلق الخير حكمة وفى خلق الشر حكمة ، وما وضع أى منهما فى موضع إلا كان دالاً على عدل الله تعالى ورحمته وعظيم حكمته ، وكل أفعال الله تعالى حسنة محمودة ، وليس الشر من أفعاله ولا ينسب إليه شر أبداً ، إنما الشر فى المخلوق المفعول المكون ، فهم هذا منكرو الحكمة أم لم يفهموا .

وقد خلق الله تعالى العباد ، وخلق أعمالهم ، وجعل لهم قدرة على الاختيار وكسباً للأعمال ، به يثابون ، وبه يعاقبون ، فمن كسب خيراً فمن توفيق الله تعالى له ، ومن اكتسب خطيئة أو إثماً فمن نفسه ، ولا يظلم ربك أحداً ، فلا ينسى لصاحب الحسنة مثقال الحبة منها ، ولا يعاقب صاحب السيئة على غير ما اقترفت يداه .

وكل شيء مخلوق لله حسنه وقبيحه ، والجميع تحت تصرفه وفى ملكه ، يمن على من يشاء برحمته . قال تعالى ﴿ **يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ [آل عمران : ٧٤] ، ويخذل من يشاء بعدله ، قال تعالى : ﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٣١) ﴾ [الإنسان : ٣١] ، وهو ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأنبياء : ٢٣] .

وهذا من مقتضيات الربوبية :

والإيمان بذلك يستلزم الوقوف على مقامين إذا انتهى إليهما علم العبد ترك السخط والغرور :

الأول : مقام الحمد والشكر ، وفيه يحمد العبد ربه تعالى ذكره على جليل ذاته وعظيم أسمائه ، وعلى ما أولى به من نعم .

الثاني : مقام الاعتذار والاستحياء والتبرؤ من الذنوب والعيوب ، حتى يكون دائم الحذر ، والخوف من الله تعالى ، فلا يأمن مكره ، ولا ييئس من روحه .

ومن كان كذلك يسر الله تعالى له طريق الجنة ، ومن أعرض واحتج بالقدر فقد ضاد الله تعالى فى حكمه ، ونقض ربوبيته وجحد نعمته ، وتوغل فى الكبر والبطش كما توغل إبليس ، ونال من الخزى والسوء والطرد من رحمة الله تعالى كما نال ، نسأل الله تعالى العافية وحُسن الختام .

وقد فطر الله تعالى عباده على توحيده وجبلهم على تعظيمه وحبه ، قال تعالى فى الحديث القدسى : « **وإنى خلقت عبادى حُنفاء كلهم** » (١) ، وقال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)** ﴾ [الروم :

---

(١) رواه مسلم عن عياض بن حمار فى كتاب الجنة (٢٨٦٥) وأحمد فى المسند (١٧٠٣) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

. [٣٠

وكما قال النبى ﷺ : « **ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء** » ، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ (١) .

فمن بقى على أصل الفطرة يسر الله تعالى له من يعلمه ، ومن حرف وبدل خذل وشقى ، قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠** ﴾ [الليل : ٥ - ١٠] .

ومن أجل البيان الفعلى التفصيلى أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب ، فلم يعد للناس على الله تعالى حجة بعد ذلك ، قال تعالى : ﴿ **رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ۝١٦٥** ﴾ [النساء : ١٦٥] ، فمن آمن وأخلص واستجاب لنبيه واتبع وأحسن فقد أفلح ونجا ، ومن كفر وعاند وأعرض واستكبر فقد أساء وهلك .

قال تعالى : ﴿ **فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٥** ﴾ [الصف : ٥] ، فإذا جاءت العقوبة وابتلى المرء بما اقترفت يداه من شر فلا يلومن إلا نفسه ، ولا يظلم ربك أحداً ، قال تعالى فى الحديث القدسى : « **يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله . ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » (١) .

---

(١) متفق عليه ، انظر البخارى ح ١٢٩٢) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨) .

(٢) رواه مسلم فى البر والصلة (٦٠ -) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٩٥) وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٧) وأحمد فى المسند (٢٠٦٠) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقة القضاء بالقدر

قال ابن الأثير فى النهاية (٢٢/٤) فى تعريف القدر : هو عبارة عما قضاه الله وحكم به من الأمور . وهو مصدر: قدر يقدر قدراً . وقد تسكن داله . (انتهى) .

والقدر بهذا التعريف مترادف مع القضاء ، فالقضاء أيضاً هو الفصل والحكم .

قال الأصبهانى فى المفردات :

القضاء : فصل الأمر قولاً كان ذلك أو فعلاً ، فمن القول الإلهى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾[الإسراء : ٢٣] أى : أمر بذلك ، وقال : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٤] فهذا قضاء بالإعلام والفصل فى الحكم ، أى : أعلمناهم وأوحينا إليهم وحياً جزماً ، وعلى هذا : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الحجر : ٦٦]ومن الفعل الإلهى قوله : ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ ﴾ [غافر : ٢٠] وقوله : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت : ١٢] إشارة إلى إيجاده الإبداعى والفراغ منه نحو ﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] ، وقوله : ﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ ﴾ [الشورى : ١٤] أى : الفصل . (انتهى) .

وقال أحمد بن إبراهيم فى شرح النونية ٧١/١ : القضاء : أصله الفصل والقطع ، يقال : قضى يقضي قضاء فهو قاض إذا حكم وفصل ، وقضاء الشىء

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق . وقال الأزهرى : القضاء فى اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وإتمامه ، وكل ما أحكم علمه أو أتم أو حتم أو أدى أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضى . قال : وقد جاءت هذه الوجوه كلها فى الأحاديث ومنه القضاء المقرون بالقدر . (انتهى) .

والقدر : نظام التوحيد ، وهو تقدير أمر الخلائق كوناً وشرعاً ، على وفق ما علم الله تعالى فى الأزل ، وكتب وشاء وخلق ، وهذا أيضاً يطلق على القضاء ، والعلماء يقولون : مراتب القدر ، ومراتب القضاء .

ومن العلماء من يفصل بينهما ويفرق .

قال الأصبهانى : القضاء من الله تعالى أخص من القدر ؛ لأنه الفصل بين التقدير ، فالقدر هو التقدير ، والقضاء هو الفصل والقطع ، وقد ذكر بعض العلماء أن القدر بمنزلة المعد للكيل والقضاء بمنزلة الكيل ، وقال بعضهم : القضاء : الحكم بالكليات على سبيل الإجمال فى الأزل ، والقدر : الحكم بوقوع الجزئيات التى لتلك الكليات على سبيل التفصيل . وهذا كما قال أبو عبيدة لعمر – رضى الله عنهما – لما أراد الفرار من الطاعون بالشام : أتفر من القضاء ؟ قال : « أفر من قضاء الله إلى قدر الله » ، وهذا شطر من حديث طويل أخرجه البخارى فى الطاعون وفيه : « فنادى عمر فى الناس إنى مصبح على ظهر فأصبحوا عليه ، قال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله، فقال عمر : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله » [(١)] ؛ تنبيهاً أن القدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله ، فإذا قضى فلا مدفع له ويشهد لذلك قوله : ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٢١] ، وقوله : ﴿ كَانَ

---

(١) متفق عليه . رواه البخارى فى كتاب الطب (٥٣٩٧) ومسلم فى السلام (٢٢١٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم ٧١] ، ﴿ وَقُضِيَ الأَمْرُ ﴾ [البقرة : ٢١٠] أى : فصل تنبيهاً أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه . وقوله : ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا ﴾ [آل عمران : ٤٧] وكل قول مقطوع به من قولك : هو كذا أو ليس بكذا يقال له : قضية ، ومن هذا يقال : قضية صادقة ، وقضية كاذبة ، هذا اصطلاح أهل المنطق ، وعند أهل البلاغة تسمى خبراً .

قال الأخضرى : ما احتمل الصدق لذاته جرى بينهم قضية وخبراً ، وإياها عنى من قال : التجربة خطر والقضاء عسر ، أى : الحكم بالشىء أنه كذا وليس بكذا أمر صعب . (انظر المفردات فى غريب القرآن) .

واختلاف العلماء فى تفسير القضاء والقدر لا يخرجهما عن حقيقة التلازم الكائن بينهما . وسواء تقدم القضاء على القدر عند من قال : إن القضاء هو الحكم بالكليات فى الأزل ، وأن القدر : هو الحكم بوقوع جزئيات تلك الكليات .

أو تقدم القدر على القضاء عند من قال : إن القدر هو الأساس ، والقضاء هو البناء . فالاثنان فى النهاية يعبران عن النظام الذى أقام الله تعالى أمر الخلائق عليه ويشملان حقيقة كل محمود وممدوح ، وموصوف بحقيقته ، وما ينتهى إلى زمن معلوم ، وما يتغير من حال إلى حال .

قال أحمد بن إبراهيم فى شرح النونية (٧١/١) : فالقضاء والقدر أمران متلازمان ، لا ينفك أحدهما عن الآخر ، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر ، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء ، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه . (انتهى) .

وعلى ما تقدم يتبين أن القضاء قد يترادف مع القدر تارة ، وقد يختلف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معه تارة أخرى . والظاهر أنهما يتفقان من وجه ويختلفان من وجه .

قال العلامة الشيخ العثيمين-رحمه الله- فى شرح العقيدة الواسطية (٢/١٨٧-١٨٩) :

القضاء والقدر : متباينان إن اجتمعا ومترادفان إن تفرقا على حد قول العلماء : هما كلمتان : إن اجتمعا افترقا ، وإن افترقتا اجتمعتا .

فإذا قيل : هذا قدر الله فهو شامل للقضاء ، أما إذا ذكرا جميعاً فلكل واحد منهما معنى .

فالتقدير : هو ما قدره الله تعالى فى الأزل أن يكون فى خلقه .

وأما القضاء : فهو ما قضى به الله سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير . وعلى هذا يكون التقدير سابقاً .

فإن قال قائل : متى قلنا إن القضاء هو ما يقضيه الله سبحانه وتعالى فى خلقه من إيجاد أو إعدم أو تغيير وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا فإن هذا يعارض قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق ؟ .

فالجواب على ذلك من أحد وجهين :

● إما أن نقول : إن هذا من باب الترتيب الذكرى لا المعنوى ، وإنما قدم الخلق على التقدير لتناسب رؤوس الآيات .

ألم تر أن موسى عليه السلام أفضل من هارون عليه السلام لكن قُدم هارون عليه فى سورة طه فى قوله تعالى عن السحرة : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه : ٧٠] ، وهذا لا يدل على أن المتأخر فى اللفظ متأخر فى الرتبة .

● أو نقول : إن التقدير هنا بمعنى التسوية أى : خلقه على قدر معين ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ [الأعلى : ٢] .

وهذا المعنى أقرب من الأول ؛ لأنه يطابق تماماً لقوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ ﴾ فلا إشكال . (انتهى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقة القدر بمباحث الربوبية

هى علاقة وثيقة فلا يمكن أن يقع فى ملك الله تعالى ما لا يشاء ، ولا يمكن أن يكون فى ملك الله تعالى ما لا يعلم ، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علم الله تعالى ولا عن قدرته إذ كل شيء صادر عن علمه وحكمته وفعله تبارك وتعالى . وهذا هو مبحث الربوبية ، قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهذا هو مبحث القدر أيضاً ، فمن ظن أن الله تعالى يقع فى ملكه ما لا يشاء أو ما لا يعلم فقد بطل إيمانه بربوبية الله تعالى ، كذلك من ظن أن شيئاً يقع فى الكون بغير قوة الله تعالى وقدرته .

قال الشيخ سليمان فى شرح كتاب التوحيد (ص ٦١٨) : ولما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر ، قال القرطبى : القدر مصدر قدرت الشيء بتخفيف الدال أقدُر وأقدِره قدْراً وقدَراً إذا حصلت بمقداره ، ويقال فيه : قدرت أقدر تقديراً مشدد الدال ، فإذا قلنا إن الله تعالى قدر الأشياء فمعناه : إنه تعالى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل إيجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده على نحو ما سبق فى علمه ، فلا محدث فى العالم العلوى والسفلى إلا هو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته ، هذا هو المعلوم من دين السلف الماضين الذى دلت عليه البراهين . (انتهى) .

قال أبو جعفر الطحاوى فى الطحاوية (ص ٣٥) : وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ولا معقب ، ولا مزيل ولا مغير ، ولا ناقص ، ولا زائد من خلقه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فى سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً ﴾ [الأحزاب : ٣٨] ، فويل لمن صار لله تعالى فى القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفّاكاً أثيماً . (انتهى) .

ويؤيد ذلك قول ابن عباس – رضى الله عنهما – القدر : نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده [1] .

قال ابن أبى العز الحنفى فى شرح الطحاوية (ص ٣٠٥) : تعليقاً على ذلك : وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم ، وما أظهر من علمه الذى لا يحاط به وكتابة مقادير الخلائق . وقد ضل فى هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك ، فإن ذلك كله مما يدخل فى التكذيب بالقدر ، وأما قدرة الله على كل شىء فهو الذى يكذب به القدرية جملة ، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد ، فأخرجوها عن قدرته وخلقه . (انتهى) .

---

(١) السُنة اللالكائى (٤/٦٧٠) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

علاقة القدر بالإيمان

الإيمان بالقدر من أصول الإيمان بالله تعالى ، فلا يقبل الإيمان بالله تعالى إلا مع الإيمان بالقدر . قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾[القمر : ٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ [الفرقان : ٢] .

وفى السُّنة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جبريل عليه السلام حين سأل النبى ﷺ عن الإيمان قال : « **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكُتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره** » (١) .

ولما قيل لابن عمر – رضى الله عنهما – : إن القدرية يزعمون [أن لا قدر وأن الأمر أنف] ، قال رضي الله عنه : « فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنى برئ منهم وأنهم برآء منى والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهباً فأنفقه ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر » (٢) ، وهكذا بقية الصحابة اجتمعوا على هذا الفهم وذلك لوحدة مشاربهم . ومن ذلك ما رواه أحمد وغيره عن ابن الديلمى قال : أتيت أُبي بن كعب فقلت له : وقع فى نفسى شيء من القدر فحدثنى بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبى ، قال : « **لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالهم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أُحد ذهباً فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولو مت على غير هذا**

---

(١) متفق عليه . رواه البخارى فى الإيمان (٥٠) ومسلم فى الإيمان (١٠) .
(٢) رواه مسلم فى الإيمان (٨) والترمذى فى الإيمان (٢٦١١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) .

لدخلت النار » قال : ثم أتيت عبد الله بن مسعود فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك ، قال : ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثنى عن النبى ﷺ مثل ذلك (١) .

وكذلك ما رواه ابن عطاء قال : أتيت ابن عباس وهو ينزغ من زمزم قد ابتلت أسافل ثيابه فقلت : قد تكلم فى القدر فقال : أو قد فعلوها ؟ فقلت : نعم ، قال : فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم ﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ [القمر : ٤٨ ، ٤٩] أولئك شرار هذه الأمة لا تعودوا مرضاهم ، ولا تصلوا على موتاهم ، إن أريتنى أحدهم فقأت عينيه بأصبعى هاتين (٢) .

وعليه فقد أجمع أهل السُّنة والجماعة على أن من كذب بالقدر فليس له فى الإسلام نصيب ، قال ابن عباس– رضى الله عنهما – القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده (٣) .

قال عوف : سمعت الحسن يقول: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر ، وقسم الآجال بقدر ، وقسم الأرزاق بقدر ، وقسم البلاء بقدر ، وقسم العافية بقدر . وأمر ونهى (٤) .

وقد كان العرب فى الجاهلية يثبتون القدر لله تعالى . وهذا من جملة إيمانهم بربوبية الله تعالى على خلقه . قال اللالكائى فى اعتقاد أهل السُنة

---

(١) رواه أبو داود فى السُنة (٦٩٩) وابن ماجة فى المقدمة (٧٧) وأحمد (٢١١٠١) انظر صحيح أبى داود (٤٦٩٩) .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (٢٦٨/٤) .

(٣) السنة اللالكائى (٦٧٠/٤) .

(٤) المصدر السابق (٦٨٢/٤) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٥٣٨/٣) : قال أحمد بن يحيى : لا أعلم عربياً قدرياً قيل له يقع فى قلوب العرب القول بالقدر ، قال : معاذ الله ما فى العرب إلا مثبت القدر خيره وشره ، أهل الجاهلية والإسلام ، ذلك فى أشعارهم وكلامهم كثير .

قال الشيخ أبو القاسم الحافظ : وهو مذهب أهل السُنة والجماعة ، يتوارثونه خلفاً عن سلف من لدن رسول الله ﷺ بلا شك ، ولا ريب ، والحمد لله على ذلك ، وأسأل الله تمام ذلك بفضله ورحمته . (انتهى) .

وهذا هو الأعم الأغلب ، وذلك لأن فى العرب من أبطل الأمر والنهى وسوى بين المشيئة والمحبة معتذراً بالقضاء والقدر .

وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) ﴾[الأنعام : ١٤٨] وقال فيهم أيضاً : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾ [النحل : ٣٥] .

وهؤلاء هم الذين خاصموا رسول الله ﷺ فى القدر .

روى مسلم عن أبى هريرة قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر فنزلت : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾[القمر: ٤٨ ، ٤٩] (١) ، ولم تكن

---

(١) رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٦) والترمذى فى القدر (٢١٥٧) وابن ماجة فى المقدمة (٨٣) وأحمد فى المسند (٩٨٠٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خصومتهم من جهة إبطال الخلق والتدبير ، فهم يثبتون ذلك فى الربوبية كما بين أحمد بن يحيى ، إنما كانت خصومتهم فى جانب إبطال الأمر والنهى .

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – فى التفسير (٥٦٩/٢) : ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه ، قال الله تعالى رداً عليهم شبهتهم : ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ أى ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الإنكار ، ونهاكم عنه آكد النهى . (انتهى) .

وهناك خصومة أخرى لهؤلاء مع القدر ، وهى من جانب العلم والسمع فيقولون : إن الله تعالى لا يعلم ولا يسمع الجزئيات والتفصيلات . وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [فصلت : ٢٢] .

وروى البخارى عن عبد الله رضي الله عنه قال : اجتمع عند البيت ثقيفان وقرشي أو قرشيان وثقفى كثيرة شحم بطونهم قليلة فقه قلوبهم فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع ما نقول ، قال الآخر : يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا ، وقال الآخر : إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ﴾ [فصلت : ٢٢] (١) .

فهؤلاء هم الجاحدون للعلم ، وأولئك هم المحتجون بالقدر ، وهؤلاء وأولئك خصماء الله تعالى يوم القيامة فى القدر .

---

(١) متفق عليه ، رواه البخارى فى كتاب التوحيد (٤٥٣) ومسلم فى المنافقين (٤٩٧٩) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمخاصمون عموماً هم الذين ينكرون العلم السابق ، وما ترتب عليه ، وكذا الذين ينكرون الأمر والنهى والحكمة والتعليل .

قال ابن القيم فى شفاء العليل (ص ٢٨) : والمخاصمون فى القدر نوعان : أحدهما : من يبطل أمر الله ونهيه بقضاء وقدره كالذين قالوا : ﴿ **لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا** ﴾ [الأنعام : ٤٨] ، والثانى : من ينكر قضاءه وقدره السابق ، والطائفتان خصماء الله . (انتهى) .

والمشركون منهم يثبتون القضاء والقدر تبعاً للربوبية ، ولكنهم ينكرون الأمر والنهى على ما تبين فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ [النحل : ٣٥] .

وقد وضح ذلك أيضاً شيخ الإسلام ابن تيمية فى الفتاوى (٢٣٨/١٦) فقال فى بيان حقيقة القدرية المشركية : ومن أقر بالقضاء والقدر وخلق الأفعال وعموم الربوبية ، وأنكر المعروف والمنكر ، والهدى والضلال ، والحسنات والسيئات ففيه شبه من المشركين والصابئة . (انتهى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مراتب القدر

مراتب القدر أربع :

المرتبة الأولى : العلم الأزلى بالكليات والجزئيات .

المرتبة الثانية : الكتابة فى أم الكتاب .

المرتبة الثالثة : المشيئة العامة الشاملة لجميع المخلوقات .

المرتبة الرابعة : الخلق والإيجاد والإنشاء .

ما دليل تلك المراتب من القرآن والسُّنة ؟ .

المرتبة الأولى : العلم :

فالله يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وعلم الله تعالى أزلى لا أول له ولا ابتداء ، ولا يزيد ولا ينقص ، فلا يخفى على الله شىء مهما دق ، ولا يغيب عنه شىء مهما حجب ، وهو يعلم أحوال الخلائق جميعاً جملة وتفصيلاً .

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الطلاق :١٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الدخان : ٣٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء : ٥١] ، وقوله تعالى :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام ١٢٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨١] .

المرتبة الثانية : الكتابة :

وهذا أمر ثابت إذ أن كل شيء قدره الله تعالى في الكون مكتوب بعلم الله تعالى وحكمته قبل أن يخلق جملة وتفصيلاً . قال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ [الحديد : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ [الجاثية : ٢٩] .

قال ابن الجوزى فى زاد المسير (٣٦٥/٧) : وأكثر المفسرين على أن هذا الاستنساخ من اللوح المحفوظ تستنسخ الملائكة كل عام ما يكون من أعمال بنى آدم ، فيجدون ذلك موافقاً ما يعملونه ، قال : والاستنساخ لا يكون إلا من أصل . (انتهى) .

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره (١٥/٢٨) : قال ابن عباس : ألستم قوماً عرباً تسمعون الحفظة يقولون : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٩) ﴾ ، وهل يكون الاستنساخ إلا من أصل . (انتهى) .

وفى السُنة ما رواه أبو داود عن أبى حفصة رضي الله عنه قال : قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه لابنه : يا بُنى : إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : رب ، وماذا أكتب ، قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة** » ، يا بنى إن سمعت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رسول الله ﷺ يقول: « **من مات على غير هذا فليس منى** » (١) .

وروى الترمذى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: « **يا غلام إنى أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجَفت الصحف** » (٢) .

وهذا المكتوب جملة فى اللوح المحفوظ ينسخ تفصيلاً ، لكل فرد بما يخصه فى مواضع أخرى .

قال شيخ الإسلام فى العقيدة الواسطية (ص/١٥٨) : وهذا التقدير – التابع لعلمه سبحانه – يكون فى مواضع جملة ، وتفصيلاً فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء ، وإذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه بعث إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات فيقال له : اكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد ونحو ذلك (انتهى) .

وقال ابن الجوزى – رحمه الله – : المعلومات كلها قد أحاط بها علم الله القديم ، قبل وجود المخلوقات كلها ، ولكن كتابتها وقعت فى أوقات متفاوتة . (الفتح ١١/٥١٧) .

وقد كان أول أمر الكتابة قبل أن يخلق الله السموات والأرض بخمسين

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠) والترمذى فى القدر (٢١٥٥) انظر صحيح أبى داود (٤٧٠٠) .
(٢) رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد (٢٦٦٤) ، انظر صحيح الترمذى (٢٦٤٨) ، المشكاة (٥٣٠٢) ، ظلال الجنة (٣١٦-٣٣١٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ألف سنة ودليل ذلك ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال وعرشه على الماء** » (١) .

وقد كتب الله تعالى نبوة محمد ﷺ وأدم بين الروح والجسد لما رواه أحمد فى المسند عن ميسرة الفجر قال : قلت يارسول الله : متى كتبت نبياً قال : « **وآدم عليه السلام بين الروح والجسد** » (٢) .

وكتب الله تعالى على آدم أن يخرج من الجنة قبل أن يخلق بأربعين عاماً ودليل ذلك قول آدم لموسى: « **أتلومنى على أمر كتبه الله علي قبل أن يخلقنى أو قدره علي قبل أن يخلقنى قال رسول الله ﷺ فحج آدم موسى** » (٣) .

قال الإمام النووى فى شرح مسلم (٨/٤٥٤) : قوله : « أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ » المراد بالتقدير هنا الكتابة فى اللوح المحفوظ ، وفى صحف التوارة وألواحها ، أى كتبه على قبل خلقي بأربعين سنة ، وقد صرح بهذا فى الرواية التى بعد هذه ، فقال : بكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين سنة قال : أتلومنى على أن عملت عملاً كتب الله علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة ؟ ، فهذه الرواية مصرحة ببيان المراد بالتقدير ، ولا يجوز أن يراد به حقيقة القدر ، فإن علم الله تعالى وما قدره على عباده وأراد من خلقه أزلى لا أول له ، ولم يزل سبحانه مريداً لما أراده من خلقه من طاعة ومعصية وخير وشر . (انتهى) .

---

(١) رواه مسلم فى القدر (٢٦٥٣) والترمذى فى القدر (٢١٥٦) وأحمد (٦٥٤٣) .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢٠٠٧٣) والترمذى فى المناقب بلفظ : « متى وجبت لك النبوة عن أبى هريرة » انظر صحيح الترمذى (٣٨٧٠) .

(٣) متفق عليه ، رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٤٦١) ومسلم فى القدر (٢٦٥٢) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقد تكون الكتابة فى مواضع متعددة وهى من تفصيل ما كتب فى اللوح المحفوظ . قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فى بيان تلبيس الجهمية (٥١٤/١) : وهذا كما أنه سبحانه وتعالى قد كتب فى اللوح المحفوظ وفى غيره ما كتبه من مقادير الخلائق . (انتهى) .

والمكتوب الذى يلحقه التبديل والتغيير والنسخ هو الذى فى صحف الملائكة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – فى الفتاوى (٤٩١/١٤) : والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها فلهذا قال العلماء : إن المحو والإثبات فى صحف الملائكة ، وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ، ولا يبدو له ما لم يكن عالماً به ، فلا محو فيه ولا إثبات ، وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين ، والله سبحانه وتعالى أعلم . (وانظر أيضاً : ٢٨٣/٢٤) .

وقد ذهب الإمام النووى – رحمه الله – فى شرح مسلم (٤٥٠/٨) : أن ما كتب فى اللوح المحفوظ لا يلحقه زيادة ولا نقص . وقال فى شرح قوله ﷺ : « جفت به الأقلام » أى مضت به المقادير وسبق علم الله تعالى به ، وتمت كتابته فى اللوح المحفوظ ، وجف القلم الذى كتب به ، وامتنعت فيه الزيادة والنقصان . (انتهى) .

قال ابن حجر فى الفتح (٥٠٠/١١) : قوله ﷺ : « جف القلم » أى فرغت الكتابة إشارة إلى أن الذى كتب فى اللوح المحفوظ لا يتغير حكمه ، فهو كناية عن الفراغ من الكتابة ؛ لأن الصحيفة حال كتابتها تكون رطبة أو بعضها وكذلك القلم ، فإذا انتهت الكتابة جفت الكتابة والقلم . (انتهى) .

وقد جزم العلامة العثيمين – رحمه الله – وأنزله منازل الصديقين أن هذا ما ذهب إليه ابن تيمية وقال فى شرح الواسطية (١٩٧/٢) : ووصف بكونه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محفوظاً ؛ لأنه محفوظ من أيدى الخلائق ؛ فلا يمكن أن يلحق أحد به شيئاً أو يغير به شيئاً أبداً ، ثانياً : محفوظ من التغيير فالله عز وجل لا يغير فيه شيئاً ؛ لأنه كتبه عن علم منه ؛ كما سيذكره المؤلف ، ولهذا قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : « إن المكتوب فى اللوح المحفوظ لا يتغير أبداً » وإنما يحصل التغيير فى الكتب التى بأيدى الملائكة . (انتهى) .

قلت : وهذا أيضاً رأى شيخنا فضيلة الشيخ سعد عبد الرحمن ندا – حفظه الله وأدام توفيقه – إذ قال لي أثناء مناقشة هذا البحث : « إن المكتوب فى اللوح المحفوظ لا يلحقه تغيير ولا تبديل ، وهذا ما ذهب إليه ابن تيمية » .

ذكر القرآن وإثباته فى اللوح المحفوظ :

وقد بين فى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ [الشعراء : ١٩٦] أن المقصود به ذكر القرآن فقط ، أما ذكره وثبوته معاً فهو فى اللوح المحفوظ ، وهذا لا يتعارض مع كونه نزل منجماً ، حسب الأحداث والوقائع .

قال ابن تيمية كما فى دقائق التفسير (١٩٥/٢) : قال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ [القمر : ٥٢] وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ [الشعراء : ١٩٦] فثبوت الأعمال فى الزبر وثبوت القرآن فى زبر الأولين هو مثل كون الرسول مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ولهذا قيد سبحانه هذا بلفظ الزبر والكتب زبر ، يقال : زبرت الكتاب إذاً كتبته ، والزبور بمعنى : المزبور ، أى : المكتوب . فالقرآن نفسه ليس عند بنى إسرائيل ، ولكن ذكره كما أن محمداً ﷺ نفسه ليس عندهم ولكن ذكره ، فثبوت الرسول فى كتبهم كثبوت القرآن فى كتبهم ؛ بخلاف ثبوت القرآن فى اللوح المحفوظ وفى المصاحف ، فإن نفس القرآن أثبت فيها . (انتهى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المرتبة الثالثة : المشيئة :

وهى الإرادة الكلية الشاملة لجميع المخلوقات ، وفيها لا يكون فى ملك الله تعالى إلا ما يشاء ، فلا يقع فيه شيء كرهاً عن الله تعالى ولا بغير إرادته ولا بغير فعله وعلمه ، بل كل بإرادته وفعله وتكوينه وأمره « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [الإنسان : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر : ٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس : ٨٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] .

المرتبة الرابعة : الخلق والإيجاد :

وهو القدرة على الإيجاد والإنشاء والتكوين ، فكل شيء مخلوق لله تعالى بأمره وفعله وقوته وحكمته ، لا ينسب شيء من ذلك لمخلوق ، قال تعالى : ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

والخلق : هو القدرة على التخليق كما تقدم ، أما الأمر فمنه ما هو كونى ومنه ما هو شرعى ، والأمر الكونى لا يمانع ولا يجاوز من بر ولا فاجر . فبكلمة واحدة من الله تعالى يخلق ما يشاء ، ويبدع على غير مثال كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس :

٨٢] ، وقد خلق الله تعالى الأجناس كلها خيرها وشرها ، لا يشاركه فى ذلك أحد ، ولا يقدر على فعله أحد ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٦١] ، وخلق قدرتها على الكسب ، وكذلك خلق الأفعال التى تتأتى منها سواء كانت خيراً أو شراً . قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، فمن جحد شيئاً من ذلك فقد كفر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أزمنة المقادير

أزمنة المقادير خمسة وهى :

[١] التقدير الأول :

وكان أول كتابة ذلك التقدير قبل أن يخلق الله تعالى السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وذلك لما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة** » (١) .

[٢] التقدير عند أخذ الميثاق الأول :

وهو ميثاق الفطرة الأول ، وفيه أخذ الله تعالى من ظهر آدم ذريته ، وهم كأمثال الذر ، وأشهدهم على أنفسهم وقال لهم : ﴿ **أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فجبلهم على حبه وتوحيده وتعظيمه ، وأقرهم على ذلك بالقوة ، فصارت النفوس تقر بخالقها ، وتميل إلى توحيده ، وبقيت تلك الفطرة فى قلوبهم حجة عليهم .

قال ابن كثير – رحمه الله – فى التفسير العظيم (٢/٢٦٥) : قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد .(انتهى) .

ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ** ﴾ [الروم : ٣٠] ، وقوله تعالى فى الحديث القدسى : « **وإنى**

---

(١) سبق تخريجه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خلقت عبادى حنفاء كلهم »[١] ، ثم جعلهم بعلمه وحكمته فريقين ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وذلك لما رواه أحمد فى المسند عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله عز وجل خلق آدم ثم أخذ الخلق من ظهره ، وقال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى** » قال : فقال قائل يارسول الله : فعلى ماذا نعمل ؟ ، قال ﷺ : « **على مواقع القدر** »[٢] .

[٣] التقدير العمرى :

ويكون ذلك فى الرحم عندما تبلغ النطفة مائة وعشرين يوماً ؛ فيرسل الله تعالى لها ملكاً فيصورها ، وينفخ فيها الروح ، ويكتب عمل الإنسان وأجله ورزقه ، وشقياً أم سعيداً ، وذكراً أم أُنثى ، وسوياً أم غير سوى .

قال عبد الله حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: « **إن أحدكم يُجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة ، مثل ذلك ، ثم يكون مضغة ، مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، ويقال له : اكتب عمله ، ورزقه ، وأجله ، وشقي أم سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه**

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) **حديث صحيح** : قال الشيخ الألبانى ، رواه أحمد فى المسند (١٨٦/٤) وابن سعد فى الطبقات (٤١٧/٧,٣٠/١) وابن حبان فى صحيحه (١٨٠٦) والحاكم (٢١/١) والحافظ عبد الغنى المقدسى فى الثالث والتسعين من تخريجه (٢/٤١) من طريق أحمد عن عبد الرحمن بن قتادة السلمى وكان من أصحاب النبى ﷺ ، وقال الحاكم : صحيح ووافقه الذهبى ، وهو كما قالا . (انظر السلسلة الصحيحة للألبانى برقم ٤٨) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كتابه فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة » (١) .

وفى رواية أخرى عند مسلم فى القدر (٢٦٤٥) : « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ، فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب أجله فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يقول : يارب رزقه ، فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك ، ثم يخرج الملك بالصحيفة فى يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص » الحديث .

[٤] التقدير الحولى :

ويكون ذلك مرة كل عام ، فى ليلة القدر ، فتقضى الأعمال ، أو تنسخ وكل ذلك من تفصيل التقدير الأزلى الأول .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾ ﴾ [الدخان : ٦] .

قال أبو السعود فى التفسير (٥٨/٨) : ومعنى يفرق أنه يكتب ويفصل ، كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم من هذه الليلة إلى الأخرى من السنة القابلة . (انتهى) .

ويؤيد ذلك ما ذكره ابن حجر فى التفسير (١٠٨/٢٥) : عن ربيعة بن كلثوم قال : كنت عند الحسن فقال له رجل : يا أبا سعيد ليلة القدر فى كل

---

(١) متفق عليه . انظر البخارى فى بدء الخلق (٣٠٣٦) ومسلم فى القدر (٢٦٤٣) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رمضان قال : إي والله إنها لفي كل رمضان ، وإنها الليلة التى يفرق فيها كل أمر حكيم ، فيها يقضي الله كل أجل وأمل ورزق إلى مثلها .

وعن مجاهد قال فى ليلة القدر : كل أمر يكون فى السنة إلى السنة الحياة والموت يقدر فيها المعايش والمصائب كلها . (انتهى) .

[٥] التقدير اليومى :

ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩] فيرفع الله تعالى من يشاء ويخفض ويعطى ويمنع ويهدى ويضل من يشاء .

قال ابن كثير – رحمه الله تعالى – فى التفسير (٤/ ٢٧٤) : قال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : كل يوم هو يجيب داعياً ويكشف كرباً ويجيب مضطراً ويغفر ذنباً .

وقال قتادة : لا يستغنى عنه أهل السماوات والأرض ، يحيي حياً ، ويميت ميتاً ، ويربى صغيراً ، ويفك أسيراً ، وهو منتهى حاجات الصالحين ، وصريخهم ومنتهى شكواهم . (انتهى)

وقال البخارى فى كتاب تفسير القرآن : قال أبو الدرداء : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ يغفر ذنباً ، ويكشف كرباً ، ويرفع قوماً ويضع آخرين .

قال ابن كثير : وقد روى موقوفاً كما علقه البخارى قبل بصيغة الجزم فجعله من كلام أبى الدرداء ، فالله أعلم (انتهى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكم الجدال في القدر

المقصود بالجدال فى القدر أو الخوض فيه والذى جاءت السُنة بالكف عنه هو الحديث فيه على سبيل الإنكار والسخط والاعتراض ، أما إذا كان على سبيل الرضا والتسليم والتعلم والفهم والتثبت فلا شيء فيه ، فهذا ابن الديلمى قال : لقيت أُبي بن كعب فقلت : يا أبا المنذر إنه قد وقع فى نفسى شيء من هذا القدر فحدثنى بشيء لعله يذهب من قلبى [سبق تخريجه] فأجاب أُبي سؤاله كما تقدم ولم ينهره على ذلك ، أما إذا كان السؤال على سبيل الخوض والسخط فلا ينبغى للمفتى أن يجيب السائل على شيء من ذلك ، ولو جبن منه فهرب لكان خيراً ، وإلا فليدفعه بعيداً عنه ، ولو ناظره وهو ظاهر عليه ولا فتنة من ذلك فلا شيء فيه وإلا فلا .

قال البربهاوى فى شرح السُّنة (ص ٣٦) : والكلام والجدل والخصومة فى القدر خاصة منهي عنه عند جميع الفرق ، لأن القدر سر الله ، ونهى الرب جل اسمه الأنبياء عن الكلام فى القدر ، ونهى النبى ﷺ عن الخصومة فى القدر ، وكرهه أصحاب رسول الله ﷺ والتابعون وكرهه العلماء وأهل الورع ونهوا عن الجدال فى القدر ، فعليك بالتسليم والإقرار والإيمان ، واعتقاد ما قال رسول الله ﷺ فى جملة الأشياء ، واسكت عما سوى ذلك . (انتهى) .

قال أبو جعفر الطحاوى – رحمه الله – : وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه ، لم يطلع على ذلك ملك مقرب ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسةً ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن مرامه ، كما قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) ﴾ [الأنبياء : ٢٣] ، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين . (ص ٣٤) .

.قال ابن أبى العز – رحمه الله – فى شرح الطحاوى (ص ٢٠١, ٢٠٢):

قال القرطبى ناقلاً عن ابن عبد البر : فمن سأل مستفهماً راغباً فى العلم ونفى الجهل عن نفسه ، باحثاً عن معنى يجب الوقوف فى الديانة عليه فلا بأس به فشفاء العي السؤال ، ومن سأل متعنتاً غير متفقه ولا متعلم فهو الذى لا يحل قليل سؤاله ولا كثيرة .

قال ابن العربى : الذى ينبغى للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة ، وإيضاح سبل النظر ، وتحصيل مقدمات الاجتهاد ، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد ، قال : فإذا عرضت نازلة أتيت من بابها ونشدت من مظانها ، والله يفتح وجه الصواب فيها . (انتهى) .

ثم قال ابن أبى العز – رحمه الله – : وقال ﷺ : « **مِنْ حُسن إسلام المرءِ تركُهُ ما لا يَعْنيه** » [1] ، رواه الترمذى وغيره ، ولا شك فى تكفير من رد حكم الكتاب ، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له بين له الصواب ؛ ليرجع إليه ، فالله سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل ؛ لكمال حكمته ورحمته وعدله ، لا لمجرد قهره وقدرته . (انتهى) .

---

(١) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣١٧) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ إلا من هذه الوجه ، ورواه ابن ماجه فى الفتن (٣٩٧٦) ومالك فى الجامع (١٦٧٢) وأحمد فى المسند (١٧٣٩) . وانظر صحيح الترمذى (٢٤٣٣) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإرادة الكونية والإرادة الشرعية

الإرادة الكونية :

هى المشيئة العامة التى يدخل فيها جميع المخلوقات من بر وفاجر وصالح وطالح ، وهى إرادة الله تعالى لفعله ، سواء كان المفعول منه محبوباً أم غير محبوب ، يرضيه أم لا يرضيه ، فالله تعالى يفعل ما يشاء ، ولا يشاء شيئاً إلا بعد إرادته له ، وكل ما كان منه فليس فيه إلا الجمال والجلال والحسن ، أما أفعال العباد فهى منقسمة ، ففيها الحسن وفيها القبيح ، وليس للعباد أن يفعلوا ما يشاءون ، وإنما يفعلون ما يؤمرون به امتثالاً وانتهاء ، وهذا هو الحسن منهم.

وتلك الإرادة متعلقة بالخلق ، وهى من لوازم الربوبية « فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » ويدخل فى هذه المشيئة خلق الأقوياء والضعفاء ، والأغنياء والفقراء ، والمؤمنين والكفار ، والملائكة والشياطين ، وخلق الخيرات والفضائل ، وخلق السيئات والحسنات ، وخلق التوفيق والخذلان ، وخلق القوة والعجز ، والبلادة والذكاء . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ﴾ [الأنعام : ١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ﴾ [النساء : ٩٠] .

وهذه الإرادة وتلك المشيئة هى التى تستلزم وقوع المراد ، والمراد إما أن يكون مراد لذاته محبوباً لله تعالى ، وذلك لما فيه من الخير كخلق الأنبياء والصالحين ، وكذلك كافة الفضائل والخيرات ، أو مراداً لغيره ، وهذا يطلق

على الكفر وجميع الشرور والآثام ، فإنها ليست مرادة لذاتها وإنما هى مرادة لشيء آخر محبوب إلى الله تعالى .

قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) ﴾ [الروم : ٤١] .

وهذا دليل على إثبات الحكمة فى جميع أفعال الله تعالى وأحكامه .

قال الإمام ابن القيم – رحمه الله – فى شفاء العليل (ص ٢١٤) :

الحق أن جميع أفعاله وشرعه لها حكم وغايات ، لأجلها شرع وفعل، وإن لم يعلمها الخلق على التفصيل ، فلا يلزم من عدم علمهم بها انتفاؤها فى نفسها . (انتهى) .

وحاصل الإرادة الكونية إثبات مشيئة الله تعالى المطلقة فى إيجاد المخلوقات كلها مع اختلاف أنواعها وأشكالها ، وتفاوت فضائلها وشرورها وجمالها ودمامتها وكيسها وعجزها ، وكفرها وإيمانها ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فالله على كل شيء قدير ، ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد ، ولا يقع فيه شيء كرهاً عنه ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ (٣٧) ﴾ [الزمر : ٣٦ ، ٣٧] .

فهو الذى أراد إيمان المؤمنين ، وهو الذى أراد كفر الكافرين ، وكل ذلك فى علمه السابق ، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن علمه ، وعلمه يستلزم ثبوت قدرته ، فإذا كان قد علم أن أبا لهب سيكفر ، فهذا معناه أنه لن يستطيع أن يخرج عن علمه ويؤمن ، وهذا دليل على أن الله تعالى سيحول بقدرته بينه وبين الإيمان ، فلن يقدره عليه ، ولن يقدر أبو لهب على خلاف ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال تعالى : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وهذا ليس من باب تكليف ما لا يطاق كما يقول الأشاعرة، وإنما هذا من باب العقوبة : وهى نوع من الخذلان لمن زاغ عن صراط الله المستقيم .

أما طاقة الأسباب فهى مقدورة له ، ولكن الله تعالى لم يوفقه ولم يقدره على بلوغ غاياتها . فما آمن من آمن إلا بفضل الله تعالى ورحمته ، وما كفر من كفر كرهاً عنه إنما كان ذلك بخذلان الله تعالى له ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس : ٩٩] ، وهو سبحانه وتعالى خالق الخير ، كما هو خالق الشر ، لا إله غيره ولا رب سواه . قال تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر : ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وفى الإرادة الكونية قد يبغض الله تعالى طاعة العاصى ولا يعينه عليها ، حتى بعد الإرشاد والنصح والبيان ، وذلك لحكمة عظيمة جليلة كما قال تعالى فى المنافقين الذين تخلفوا مع الخوالف فى بيوتهم ، وتركوا الخروج للجهاد مع النبى ﷺ كما فى غزوة أُحد وغزوة تبوك : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

وقد بيَّن الله تعالى الحكمة فى بغضه لطاعتهم فقال : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة : ٤٧] .

وهو سبحانه ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنبياء :٢٣]

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وذلك لأنه يتصرف فى ملكه ، وهذا ليس فيه ظلم ، إنما الظلم فى الحقيقة يكون من تصرف المتصرف فيما لا يملك ومنع المستحق ما يستحقه .

والله تعالى لا يجب عليه شيء لأحد حتى يُحاسب على ما ضيق ومنع ، وعلى ما أهان وخذل ، إنما هو الذى يوجب على نفسه ويحرم على نفسه وليس ذلك محض مشيئة ، إنما هو حكمة بالغة ورحمة واسعة وعدل قويم .

أما الإرادة الشرعية :

فهى إرادة الله تعالى لأمره الدينى الشرعى ، وهى التى أرسل من أجلها الرسل ، وأنزل من أجلها الكتب ، وهى لا تستلزم وقوع المراد مع كونه محبوباً لله تعالى إلا إذا كان متعلقاً بالإرادة الكونية .

وفى الإرادة الشرعية يحب الله تعالى لعباده الإيمان والتوبة والهداية والشكر ولا يرضى لهم الشقاق والكفر ، قال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦)** ﴾[النساء : ٢٦] ، وقال تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ** ﴾ [النساء : ٢٧] ، وقال تعالى : ﴿ **إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** ﴾ [الزمر : ٧] .

هذه هى الإرادة الشرعية وقد تنفذ وقد لا تنفذ ، ولو كانت الإرادة الشرعية هى الإرادة الكونية لتاب الناس جميعاً ولهدوا جميعاً ، رضوا أم أبوا أحبوا أم كرهوا .

وبالرغم من أن الإرادة الشرعية محبوبة لله تعالى ، وفيها يرضى بإيمان الكافرين ويبغض كفر المؤمنين ، إلا أن كفرهم وعصيانهم جائز فى الإرادة الكونية فقد يرتد من يؤمن ولا يربط الله على قلبه – كما ربط على قلب أم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

موسى لتكون من المؤمنين – وقد ضرب الله تعالى المثل لذلك فى بلعام بن باعوراء الذى آتاه اسمه الأعظم ، وعلمه من آياته ، ولكنه ضل عن ذلك وغوى ، فلم يشأ الله تعالى هدايته أو إعانته على الخير وإنقاذه مما وقع فيه من الإثم والضلال إنما تركه وخذله . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾ [الأعراف : ١٧٦] .

قال ابن القيم – رحمه الله – فى مدارج السالكين (١/٥٢٤) : ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام بن باعوراء لقى ما لقى ، وكان يعرف الاسم الأعظم . (انتهى) .

الشاهد مما تقدم :

أن الإرادة الكونية تشمل جميع المخلوقات بارهم وفاجرهم ، فهى خاصة بالخلق ، ففيها يخلق الله تعالى ما يشاء مما يحب ومما يكره ، ولذلك فهى أعم فى ذلك من الإرادة الشرعية ، لأنها غير متعلقة بإيمان أحد ولا بكفره ، بينما هذا من متعلقات الإرادة الشرعية ، لأنها خاصة بالأمر الشرعى الدينى المحبوب لله تعالى .

والله تعالى يأمر بالعدل والإحسان والتوحيد والحق والخير ، ولا يحب الزور ولا الظلم ولا الشرك ولا الفحشاء ، ولا يأمر بذلك أبداً ، وإن كان ذلك كله مع تضاده وتنوعه واقع بقدر الله تعالى الكونى . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل : ٩٠] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قال الشيخ العلامة محمد خليل هراس – رحمه الله – فى شرح الواسطية (ص ٥١ ، ٥٢) : والأشاعرة يثبتون إرادة واحدة قديمة تعلقت فى الأزل بكل المرادات ، فيلزمهم تخلف المراد عن الإرادة ، وأما المعتزلة فعلى مذهبهم فى نفى الصفات لا يثبتون صفة الإرادة ، ويقولون : إنه يريد إرادة حادثة لا فى محل ، فيلزمهم قيام الصفة بنفسها وهو من أبطل الباطل .

وأما أهل الحق فيقولون : إن الإرادة على نوعين :

[١] إرادة كونية ترادفها المشيئة :

وهما تتعلقان بكل ما يشاء الله فعله وإحداثه ، فهو سبحانه إذا أراد شيئاً وشاءه كان عقب إرادته له كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾ [يس : ٨٢] ، وفى الحديث الصحيح : « **ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن** » .

[٢] إرادة شرعية :

تتعلق بما يأمر الله به عباده مما يحبه ويرضاه ، وهى المذكورة فى مثل قوله تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولا تلازم بين الإرادتين ، بل قد تتعلق كل منهما بما لا تتعلق به الأخرى ، فبينهما عموم وخصوص من وجه .

فالإرادة الكونية : أعم من جهة تعلقها بما لا يحبه الله ويرضاه من الكفر والمعاصى ، وأخص من جهة أنها لا تتعلق بمثل إيمان الكافر وطاعة الفاسق .

والإرادة الشرعية : أعم من جهة تعلقها بكل مأمور به ، واقعاً كان أو غير واقع ، وأخص من جهة أن الواقع بالإرادة الكونية قد يكون غير مأمور به (انتهى).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فائدة :

أكثر العلماء على أن المشيئة مرادفة للإرادة على الإطلاق ، ولكن الملاحظ من تفصيل العلامة محمد خليل هراس – رحمه الله تعالى – أنه فرق بين الإرادة والمشيئة ، فجعل المشيئة مرادفة للإرادة الكونية فقط بل وجعلها تابعة لها ، وهذا متناسب مع قول النبى ﷺ : « **ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن** » [أخرجه البيهقى فى الاعتقاد ورواه أحمد والطبرانى عن زيد بن ثابت . قال الهيثمى : وأحد إسنادى الطبرانى رجاله وثقوا ، وفى بقية الأسانيد أبو بكر ابن أبى مريم وهو ضعف . انظر مجمع الزوائد ١١٦/١٠] .

وعليه فهذه المشيئة لا تجاوز ولا تمانع . ومن الدليل على ذلك أن أقوال العباد وأفعالهم معلقة عليها ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الإنسان : ٣٠] ، ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً** ﴾ [الكهف : ٦٩] ، ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الكهف : ٢٣] ، ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [الصافات : ١٠٢] ، ﴿ **إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ** ﴾ [هود : ٣٣] ، ﴿ **ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ** ﴾ [يوسف ٦٩] ﴿ **قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا** ﴾ [الأعراف : ٨٩] ، فدل ذلك على أن المشيئة غير منقسمة إلى كونية وشرعية لأنها واقعة لا محالة . غير أن الإرادة منقسمة إلى كونية وشرعية . فلا يلزم من إرادة الله الشرعية أن يقع مراده فى العباد ، فقد يقع وقد لا يقع ، ولا يلزم من إرادة العباد أن توافق مراد الله تعالى ، فقد يريد العبد مصيبة ما لنفسه ولا يريدها الله له ، أما الإرادة الكونية فهى واقعة لا محالة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بقى أمر آخر متعلق بصفة الإرادة ، وهو أن الله عز وجل مريد فى الأزل ، ولكن إرادته تعالى للأشياء تصدر متعاقبة شيئاً بعد شىء ، فإذا أراد شيئاً كان كما أراد ، وهذا كصفة الكلام ، فصفة الكلام صفة ذاتية من حيث أن الله تعالى متصف بذلك فى الأزل ، لكنه يتكلم إذا شاء ، وهذا دليل على أنها صفة فعلية أيضاً ، ويظهر ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، فالكلام مرتبط بمجىء موسى ، وليس كما يقول هؤلاء الأشاعرة أن الله تعالى كلم موسى كلاماً نفسياً فى الأزل .

قال العلامة الشيخ محمد خليل هراس فى عقيدة القرآن والسُّنة (ص١٥٢) :

لا يعقل أن يكون أراد الأشياء كلها فى الأزل ، بل كل مراد من المرادات إنما يقع بإرادة جزئية خاصة به كما قال تعالى : ﴿ **إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٤٠﴾ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وهكذا فى جميع صفات الأفعال ، لا توجد أفرادها مجتمعة فى الأزل ، بل لا توجد إلا على التعاقب فيما لا يزال . (انتهى) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القول في تقسيم القدر إلى شرعي وكوني

يقول بعض أهل العلم المعاصرين : إن تقسيم القدر والإرادة والكلمات والإذن والكتابة إلى كونى وشرعى تقسيم حديث ظهر فى زمن ابن تيمية ، ولم يكن متداولاً بين أهل العلم قبل ذلك ما صحة ذلك ؟ .

والجواب : أن هذا التقسيم متحقق بالاستقراء من أدلة الكتاب والسُّنة ، ومعنى أنه متحقق بالاستقراء : أنه معلوم بالفقه والفهم والتدبر فى الدين ، وهذا من لوازم النصوص ، ولقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتابعون لهم أفقه الناس فهماً للنصوص ، ولا يمكن أن يغيب عنهم ما يفرقون به بين ما قدره الله تعالى بأمره الكونى وما قدره بأمره الشرعى ، حتى يأتى من بعدهم ويسبقهم إلى فهم ما تستلزمه تلك النصوص دونهم ، فهذا يتناقض مع الخيرية التى ميزهم الله تعالى بها على من سواهم .

ومن حقيقة الواقع الذى كان عليه السلف قبل ظهور الفرق والمذاهب المنحرفة يتضح جلياً مدى علمهم بهذا التقسيم . ولذلك لما ظهرت فتنة القدرية أنكروا عليهم القول بالقدر وأثبتوا أن الله تعالى خلق الشر كما خلق الخير وأن ذلك كله من تقدير الله الكونى . وأنكروا كذلك على الجبرية إنكار كسب الأعمال : وهو جحود للأمر الشرعى ، وأنكروا عليهم التسوية بين التقديرين الشرعى والكونى ، وقد كان غلاتهم يقولون : إن كنا مخالفين فى الأمر الشرعى فنحن موافقون فى الأمر القدرى الكونى .

قال ابن القيم فى النونية مبيناً ضلالهم :

وإذا ارتفعت دريجة أخرى رأيت ... الكل طاعات بلا عصيان

إن قيل قد خالفت أمر الشرع قل ... لكن أطعت إرادة الرحمن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهذا يدل على أن السلف حين أنكروا على هاتين الفرقتين كان عندهم علم سابق بالفرق بين ما هو كونى مخلوق ، وما هو شرعى دينى مأمور به ، وكيف لا يكون لهم علم بذلك ، وهم مأمورون باتباع ما هو شرعى دينى مأمور به على سبيل التعبد ، وترك ما هو كونى معارض مخلوق على سبيل الفتنة والامتحان .

وقد بيَّن الله تعالى فى القرآن كيف أن المشركين يبغضون كل ما هو شرعى دينى ويميلون إلى كل ما هو كونى قدرى ، ويحتجون به على الكفر والشرك والمعاصى كما قال تعالى : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾** ﴾ [النحل : ٣٥] .

وقد وجد فى الصوفية القدامى من يبرر التجاوز عما هو شرعى والميل إلى ما هو كونى ، على اعتبار أنه من جملة المراد لله تعالى ، كما حكى عن الجيلى أنه قال :

وأسلمت نفسى حيث أسلمنى الهوى ... ومالى من حكم الحبيب تنازع

إذا كنت فى حكم الشريعة عاصياً ... فإنى فى علم الحقيقة طائع

وعلم الحقيقة يراد به عند الصوفية شهود الحقيقة الكونية ، وفيه لا يرون مختلفات ولا متضادات فى الخلق ولا فى الأمر ، فالسماء والأرض شىء واحد ، والكفر والإيمان شىء واحد ، والشرع والزندقة شىء واحد ، والخالق والمخلوق شىء واحد ، وهذا هو غاية علوم العرفان عندهم [تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً] .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشاهـد :

أن الواقع يدل على ثبوت المعرفة والتفصيل بهذا التقسيم ، وقيام الاعتقاد عليه عند السلف وإن كانت الأسماء غير مستخدمة .

وقد علم كل من له نظر فى حقائق الأمور أن منتهى الضلال يتأتى من الجهل بالنصوص ، والجهل بفحواها ومقاصدها ، وكلا الأمرين ممتنع عند السلف الصالح ، فهم أحفظ الناس للنصوص ، وأعلم الناس بمقاصدها .

والذى ينبغى التأكيد عليه أن اعتقاد السلف لم يكن رد فعل لما نشأ من أفكار الفرق المخالفة الضالة المنحرفة ، إنما كان علمهم سابقاً لكل من خالفهم فيه ، ولذلك فقد حاجوهم به على الإجمال والتفصيل ، وقد كانوا جميعاً متفقين على ذلك مع تباعد ديارهم ، وهذا يدل على وحدة مشاربهم ومصادرهم .

وعودة إلى أدلة الاستقراء من القرآن نجد أن القضاء ينقسم قسمين قضاء كونى وقضاء شرعى ، والحكم ينقسم قسمين حكم كونى وحكم شرعى ، والإرادة كذلك ، والكلمات والبعث والتحريم والإرسال والإيتاء كذلك ، بحيث لا يستطيع الباحث أن يجد مفراً من الخضوع لهذا التقسيم ، الذى اتفق عليه أئمة التوحيد لبيان الفارق بين ما هو مخلوق كونى مفعول ، وما هو أمر شرعى محبوب ، ولا يمكن أبداً أن تكون الآيات الدالة على أوامر الله تعالى القهرية – التى لا مناص من وقوعها ولا حيلة فى ردها كما بين النبى ﷺ من حديث ثوبان وفيه قال : « **وإن ربى قال يا محمد : إنى إذا قضيتُ قضاءً فإنه لا يُرد** » [(١)] – متماثلة مع أوامر الله تعالى الشرعية التى قدر فيها الاختيار لتقع

---

(١) رواه مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٩) والترمذى فى الفتن (٢١٧٦) وأبو داود فى الفتن (٤٢٥٢) وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢) وأحمد فى المسند (١٦٦٦٦) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو لا تقع كما بين تعالى فى كتابه من تمرد الكفرة والمشركين على أوامره وكتبه ورسله .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾ [الأنعام : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) ﴾ [المؤمنون : ٧٦] ، فهذا بالتأكيد لا يخص الأوامر الكونية ، وإلا فما كان لهم فيها نظر ولا اختيار ، وذلك لامتناعها عليهم بخلاف الأوامر الشرعية ، التى يجوز فيها الاختيار ، ولذلك وقع منهم التمرد وعدم الإذعان .

قال الجصاص المولود سنة ٣٠٥ المتوفى ٣٧٠ هجرية فى أحكام القرآن (٤٤/٤) : وقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ [المائدة : ٣] ونحوها تحريم حكم وتعبد ، لا تحريم منع فى الحقيقة ، ويستحيل اجتماع تحريم المنع وتحريم التعبد فى شىء واحد ؛ لأن الممنوع لا يجوز حظره ولا إباحته ، إذ هو غير مقدور عليه والحظر والإباحة يتعلق بأفعالنا ، ولا يكون فعلاً لنا إلا وقد كان قبل وقوعه منا مقدوراً لنا . (انتهى) .

ولأجل ذلك لا يمكن أن تكون كلمات الله تعالى الكونية التى لا يستطيع أحد أن يتجاوزها أو يخالفها هى نفسها الكلمات الشرعية ، التى يخالفها الكفار واليهود والنصارى والمجوس ، ولو كانت الكلمات الشرعية هى هى الكلمات الكونية وأراد الله تعالى بالعباد الهدى والتوبة ، لكان الناس جميعاً على هدى وتوبة شاءوا أم أبوا كرهاً عنهم ؛ بسبب أنها كونية لا تخالف ولا ترد .

وكذلك لا يمكن أن يكون القضاء فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، الذى أمر الله فيه عباده كلهم أجمعين بالتوحيد هو نفسه القضاء الذى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الإسراء : ٤].

ذلك لأن الأول وقعت فيه المخالفة حتى عُبد مع الله تعالى غيره ، أما الثانى فقد حكم الله تعالى فيه بوقوع الفساد والضلال من بنى إسرائيل حتماً ، حيث لا يمكن أن يمانع أو يرد ؛ فدل ذلك على وجود الفارق بين ما هو شرعى وما هو كونى .

وقد بين ابن القيم – رحمه الله تعالى – أن من لم يفرق بين الكلمات الكونية والشرعية فهو جهمى العقيدة . فقال : وقد اجتمع النوعان فى قوله : ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم : ١٢] ، فكتبه كلماته التى يأمر بها وينهى ويحل ويحرم ، وكلماته التى يخلق بها ويكون ، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه وكلمات تكوينه وتجعلها خلقاً من جملة مخلوقاته (انظر شفاء العليل لابن القيم ص ٢٨٢) .

وقد فصل ذلك – رحمه الله تعالى – فى شفاء العليل (ص٢٨١) هذا التقسيم فقال : الباب التاسع والعشرون فى انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإيتاء إلى كونى متعلق بخلقه ، وإلى دينى متعلق بأمره ، وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال . وهذا الباب متصل بالباب الذى قبله ، وكل منهما يقرر لصاحبه ، فما كان من كونى فهو متعلق بربوبيته وخلقه ، وما كان من الدينى فهو متعلق بإلهيته وشرعه ، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر ، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله والأمر شرعه ودينه ، فهو الذى خلق وشرع وأمر ، وأحكامه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جارية على خلقه قدراً وشرعاً ، ولا خروج لأحد عن حكمه الكونى القدرى .

وأما حكمه الدينى الشرعى فيعصيه الفجار والفساق ، والأمران غير متلازمين ، فقد يقضى ويقدر ما لا يأمر به ولا يشرعه ، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره ، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم . وينتفى الأمران عما لم يقع من المعاصى والفسق والكفر .

وينفرد القضاء الدينى والحكم الشرعى فيما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور ، وينفرد الحكم الكونى فيما وقع من المعاصى ، إذا عرف ذلك : فالقضاء فى كتاب الله نوعان كونى قدرى كقوله : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ﴾ [سبأ : ١٤] ، وقوله : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الزمر : ٧٥] ، وشرعى دينى كقوله : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء : ٢٣] ، أى أمر وشرع ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله .

والحكم أيضاً نوعان ، فالكونى كقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴾ [الأنبياء : ١١٢] ، أى افعل ما تنصر به عبادك وتخذل به أعداءك ، والدينى كقوله : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة : ١٠] ، وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة : ١] ، وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله : ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٦] ، فهذا يتناول حكمه الكونى وحكمه الشرعى .

والإرادة أيضاً نوعان : فالكونية كقوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ ﴾ [البروج : ١٦] وقوله : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء : ١٦] ، وقوله : ﴿ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود : ٣٤] ، وقوله : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص : ٥] .

والدينية كقوله : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء : ٢٧] ، فلو كانت هذه الإرادة الكونية لما حصل العسر لأحد منا ، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين . (انتهى) .

وهكذا فصل ابن القيم – رحمه الله تعالى – ذلك التقسيم فى كتابه العظيم [الحكمة والتعليل] ، فمن أراد الزيادة فليرجع إليه ، ففيه الفائدة الكبرى .